عمر فاخوري

اديب في السوق

منشورات « دار المكشوف »

اديب في السوق

اديب في السوق

للمؤلف

الباب المرصود

الفصول الاربعة

لا هوادة

الحقيقة اللبنانية

الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية

●

آراء اناتول فرانس (عن الفرنسية)

آراء غربية في مسائل شرقية (عن الفرنسية)

مهاتما غاندي (عن رومن رولان)

عمر فاخوري



مَنشُورَاتُ « دار المَكشُوف »



طبع من هذا الكتاب الفان وخمسمائة نسخة على ورق جيد ،
وست نسخ على ورق فاخر مرقمة من ١ الى ٦ خاصة بالمؤلف

●

الطبعة الاولى ، ١٩٤٤

مقدمة

حمل اليَّ البريد ، ذات يوم ، رسالة لطيفة حقاً ! لو لم يكن من لطف صاحبها الا أنه يحدثني فيها عن نفسي لكفى .. واذا قلت : عن نفسي ، فانا اعني بالبداهة : عما اكتب ، ولا فرق . أليس من نكد الادب على الاديب ، ان يمسي فلا يفرق بين ذاته وكتابته ، اغلب الاحيان ؟ . ولم نقل : دائماً ، حذر الغلو .. فلعلها من عاهات المهنة ، تلحق المتأدب في هذا العصر ، كما تلحق سواه من ذوي الاعمال . وقديماً قالوا : « لحقتْهُ حرفة الادب » . انما ارادوا معنى آخر .

قال مراسلي ما نصه : فصلك الاول لم افهمه . وفصلك الثاني فهمته ، لكن لا طائل تحته . اما

فصلك الثالث ، فما كدت استبشر بعنوانه خيراً ، ثم انتهي منه ، حتى قذفت به من النافذة .. واتبعته نظري فاذا به يسقط على رأس احد المارة الحاسرين فلا يؤذيه ، لضؤولة ما فيه .. وكان الخطر من عنوانه الضخم : « الادب بين جيلين » . فالاحسن ان تسميه من الآن فصاعداً : « الادب بين محام وصيدلي » .. الخ . الخ .

واعجب ما في هذه الرسالة اللطيفة توقيع كاتبها الظريف : « قارئ .. يقرئك السلام . »

لا بأس . فلن اثيرها اليوم ، مسألة شعواء بين الكاتب وقارئه :

— لماذا تكتب ما لا افهم ؟

— لماذا لا تفهم ما اكتب ؟

فتلك قضية قديمة لم يؤت احد من الخلق حق

الفصل فيها .. بل اني لأحسبها من المعضلات الكثيرة التي ستبقى دون حل ، مهما جُرب فيها من الحلول ، لاسباب لا يحصرها العدّ ، حَسْبُنا منها هذا السبب الاساسي ، وهو : يجب للفصل بين القارئين والكاتبين ، ان نوفق ، بادي، ذي بدء ، الى قاض عادل لا يكون من هؤلاء ولا من هؤلاء . واين نجد هذا القاضي اذاً ألّا في الأميين ؟. لا جرم انه قائل لنا ، ذلك الأمي :

— أيش هذا كدّ القريحة ؟ اين تركتم عرق الجبين ؟ وابوكم آدم ، بماذا قضى الله عليه اذ طرده من الجنة ؟ تأكل خبزك ، بعرق جبينك .

وهكذا كنا اثنين ، فامسينا ثلاثة : الكاتب والقاري، والخطيب — الامر الذي يزيد المسألة تعقيداً .. اما قلنا انها معضلة لا حلّ لها ؟

اما مراسلي الظريف ، فقد كان يُخيِّل اليَّ ، وانا اقرأ رسالته ، انه يخاطبني من وراء توقيعه المستعار ، كطيف من طيوف الخيال ، الذين يعاشرون الشعراء ، ويتجنون عليهم ما شاء التجني ، ثم يتربعون في القصيدة وكأنهم في عقر دارهم ، برفع الكلفة .. واحسب ان هذا المراسل يريد ان يتربع هو ايضاً في هذه المقدمة .. فليكن له ما اراد . انه لجدير بكل تكرمة . ألم يمنَّ عليَّ بقراءة ما اكتب ؟

وإنْ انس لا انس يوم استوقفني في زحمة الشارع ، احد رفاقي الاقدمين في الدراسة « العالية » وكأنه يذكر فجأة انه عرفني فيما غبر من الازمنة ، ولما نفترق .. فبعد ان حياني احسن تحية ، اخذ بذراعي كأنه يريد مؤآساتي في مصيبة نزلت او ستنزل بي . وكنت اتساءل وجلاً : « ماذا يريد بي

هذا الآدمي؟ أخيراً ام شراً ؟ » ثم اقول : « خيراً ان شاء الله ! » فاذا به يلتفت نحوي ، والابتسامة العريضة على ثغره ، كالوردة التي ازدانت بها عروته ، قائلاً : « الجريدة الفلانية . . » وذكر احدى صحف البلد .

اجبت ، وقد سُرّي عني : « نعم .. نعم . »
قال : « رأيت صورتك .. حقاً انها جميلة . »
فشكرته وحمدت الله . وودعني وانصرف .
وهذا قارىء لم « يقرأ » إلاّ صورتي !
الا فنبئوني ايّ القارئين اعظم اجراً : أذلك الذي لم تعجبه مقالتي ، ام هذا الذي اعجبته صورتي ؟
اكبر الظن ان الاخير هو اسعد الاثنين حظاً .

فى البُرج العَاجىّ

١ مسرحية ذات فصلين

الشتاء والصيف « فصلان » من رواية السنة .

في الفصل الاول : يؤذينا البرد والوحل والمطر ، فنتمنى الصيف .

وفي الفصل الآخر : يؤذينا الحر والغبار والعرق ، فنتمنى الشتاء .

نريد شتاء لا برد ولا وحل ولا مطر معه .

ونريد صيفاً لا حر ولا غبار ولا عرق معه . نريد الصيف والشتاء على سطح واحد ، اي على سطحنا .

قال الشتاء للصيف ، واسنانه تصطك من

البرد ، والدموع تهطل من مآقيه :

— ان هؤلاء البشر لا يرضون .

فأجابه الصيف وهو يحترق من الغيظ ، والشرر يطاير من عينيه :

— ولن يرضوا الى يوم القيامة .

ثم رفع « الفصلان » نظرهما ، متوسلين مبتهلين ، نحو السماء ، الى مؤلف « الرواية » ، وهتفا بصوت واحد :

— اللهم ، يا ستّار ! . الستار ، الستار !.

٢ خبر على ثلاث روايات

كان يمتع النظر خلسة ، من النافذة المطلة على دار جارهم الاوربي ، بفخذين عاريتين على كرسي ، مأخوذاً بهذا السر العاجي يفشيه جسد غريب ، في مأمن من الرقباء . وسرعان مـا طوح به الخيال ، فزيّن له الالوان والاشكال . . ماذا به ؟ هل نسي انه من مدينة على شاطيء المتوسط ، لا تحترم فيه المرأة نفسها اذا لم يُنتهك ، فوق رمله الابيض ، جـلّ اسرارها ؟. والراقصات اللواتي طالما شهدهن ، ساكنات او متحركات او بين بين ، لا زينة الا عريهن او ما يشف عنه ، في مرابع القصف ، او سوق اللحم ، كما

كان يسميهـا في ليالي السأم والخيبة والعياء ؟ أفي هذه السن المتقـادمة ، وبعد تلك الخبرة الطويلة ، عافاك الله ؟

وعلى مقربة من الكرسي طفل يبكي متضاحكاً ، ثم يضحك متباكياً ، وكـأنه ثمة لكي تكتمل في ذهن هذا الناظر الحسير ، قصة الامومة ، بل الانوثة الناضجة : المرأة الحسناء وطفلها اللعوب .. اذ راعه صوت اجشّ ، صادر عن الكرسي ، ينتهر الصبي بكل نبرات الرجولة ، فيا للصفقة الخاسرة !

واراد ان يُتمّ « الواقعة » كأنما يثأر لنفسه المغبونة ، فتخيل ان زوجه اطبقت عليه ، في موقف خزيـه هذا ، فقالت وهي تتطلع من فوق كتفه .

ـــ ماذا ترى ؟

فلم يجد سبيلا الى الهرب او الكتمان ، واجاب همساً :

ـــ انظري .. جارتنا !. فخذان جميلتان ..

فاغلقت النافذة بعنف ، وجرته من كمه ، قائلة:

ـــ ألا تستحي ، يا خنزير ؟

وكان ، اذا روى الخبر ، يسره ان يختم هكذا :

قالت لي ، وهي ترمقني بنظرة خبث واستخفاف :

ـــ فخذا رجل ، يا مسكين .. لكن جميلتان حقاً !

وانفتلت ضاحكة.

٣ الكارثة

كان في اليوم الاول من هذه الحرب الاخرى (١٩٣٩ ـــ ؟) يتجادل وصديقاً له ، في ظل القنديل الازرق . وكان ذاك اول عهده بالدنيا ؛ بعد ان أخرج من برجه العاجي حيث قضى في عزلته الطلسمية عمراً ، وهو منهمك في تلفيق المعاني ، وترويق المباني . وقد فجأته الكارثة ، اذ كان يعدو خلف قافية شرود ، فزلت قدمه ، فالله وحده يعلم كم لبث على الدرج ، متدحرجاً من شاهق البرج العاجي . ولم يكد يبلغ عتبة الباب ، حتى وجد نفسه في الساحة ، بين بني آدم المعذبين ،

واعلنت الحرب !. وكانت يده على جيبه ، وفي جيبه طومار ، ولو انشق هـذا الطومار كفلقتي رمانة ، لكانت احداهما « القصة ذات الفصلين » وكانت الثانيـة « الخبر على ثلاث روايات » ويا للغنيمة !

اذا كان صاحبنا يحاور صديقه . ولم يكن الحوار دائراً على محور المعـاني الملفقة ، والمبـاني المزوقة ، ولا حول تلك القافية الشرود ، مزلّة الأقدام . فطفق وجليسه يتقاذفان باسماء الاعلام ، امثـال تشرشل وستالين ، وموسوليني وهتلر ، كأنها تارة صواعق ، وتارة شتائم ، اذ حانت منه التفاتة الى ماري الخادم الصبية ، وقد راعهـا هذا الخصام ، تنظر ولا ترى ، وتسمع ولا تعي .. فسألهـا كالمستغيث :

ـــ وانت يا ماري ؟ . من أي حزب ؟

اجابت لفورها :

ـــ من حزب السيد احمد ، يا معلمي .

تريد : الحسيني .. ذلك ان ماري قادمة من قرطبا .. تبا لها ! انها لن تعرف شيئاً عن البروج .

٤ التاريخ يعيد نفسه

كان الشاعر النجفي ، احمد الصافي ، يتصفح الجزء الاول من هذه « المراحل » ، مجيلاً نظره بين اغواره وانجاده ، وجباله ووهاده ، وكأنه في زيّه العربي الاصيل ، السندباد البحري قد سئم المقام بين دفتي « الف ليلة وليلة » بضعة قرون ، فشمر متأهباً لرحلة ثامنة في عرض الاوقيانوس ، اذ عثر بذلك العنوان الضخم لتلك القطعة الصغيرة ، مما تمخض به صاحب البرج العاجي ، خلال عزلته الطويلة ، زمن السلم .. فاصلح الشاعر العراقي جلسته ، وثبت نظارته ، ثم لم يكد يقرأ العنوان : « مسرحية ذات

فصلين » حتى شهد في الخـاتمة كيف ان الصيف
والشتاء ، فصلي رواية السنة ، يضرعان الى المؤلف
وهو الستّار الاعظم ، ان « يسبل ستره » نهائيـاً ،
فلا يعاد تمثيل الرواية ، وترتاح « الفصول » . وكنت
من ناحيتي ، اتدبر سر هذه المسرحية العجيبة الـتي
لا شيء أقرب الى عنوانها من خاتمتها ، ولا حوار
فيها إلا بين فصليها وبين مؤلف غير منظور ، كأنها
في النوع القصصي ، بمثابة الشعر الصافي او الابريز ،
وقد تمثل لي لويجي براندلو حاملًا مسرحيته المشهورة
التي يقص فيها نبأ ستة « اشخاص » من دنيا الخيال ،
يبحثون عن « مؤلفهم » ويجدّون في طلبه ، فلا يقرّ
لهم قرار حتى يخلقهم خلقاً سوياً ، أسوة بغيرهم من
ابطال القصص . وهممت ان اقول : « لله در صاحبنا
صاحب البرج العاجي ، فقد بزّ زميله الايطالي ، او

كاد . . » اذ بالشاعر النجفي يميل نحوي وينشدني بلهجة عراقية حلوة :

يتمنى المرء في الصيف الشتا ،

فاذا جاء الشتا أنكره . .

لا بذا يرضى ، ولا يرضى بذا :

قُتل الانسان ، ما اكفره !

هذان بيتان من الشعر لشاعر متقدم ، عرفتهما وكأني اسمعهما أول مرة . كل « المسرحية ذات الفصلين » فيهما . . حتى الخاتمة وما يرافقها من موسيقى صرير الاسنان ، تجده في « قتل الانسان ، ما اكفره ! » صدق من قال : « لم يترك الاول شيئاً للاخر . . » وإن يكن صاحب البرج العاجي ، وهو ينافس براندلو الايطالي ، الحائز على جائزة « نوبل » في الادب العالمي . .

ودعت صديقي الشاعر الصافي ، وقد ساءني ان يُفجع ذلك العزيز صاحب البرج العاجي ، بمسرحيته التي وضعها ، على حد قوله ، بعد مخاض عسير . كنت — قبل ان القى هذا الراوية للشعر القديم ، الذي وسع حفظه كل شيء وذينك البيتين من شعر لا يعرف قائله إلا اولو العلم — امشي في السوق على غير هدى ، اعني : لا اريد موضعاً بعينه . وكنت لخلوّ بالي وشرود فكري ، إخال ان نفسي تطفر أمامي مرحاً ، فأنا أقفو إثرها كما يتبع المرء ظله . بل لو اني شهدتها حينئذ ترقص وتغني في قارعة الطريق ، لما كذبت حسي ، ولا انكرت هذا منها : أليست رجعة الطفولة في الرجل ، حيناً بعد حين ، في طبيعة الوجود ، ومن نعم الحياة ، فيكون ذلك في شجرة العمر ، كالثمر

الشهي في غير إبانه ، وبعد اوانه ؟ أمن العدل ان أكون في هذا الحلم الارغد من احلام اليقظة ، فيسلط الله عليّ شاعراً راوية حافظاً ، كي يفجع صاحبي ، صاحب البرج العاجي ، بمسرحيته ذات الفصلين ، فكأني أنا أفجأ بنعيه ، على الماشي ، واذا نفسي حزينة ، منكمشة لا ادري في اية زاوية موحشة حالكة ، كالعجماء التي تحس دنو الاجل ، فلا يكون همها الا ان تنتبذ ركناً مهجوراً ، كي تموت ، في نوع من الحياء ، بعيدة عن الانظار ؟

واخذني القلق وساورتني الوساوس ، فنفسي كالخرقة التي تعلق بحذائك الوحلة ، فتجرها جراً ، ثم تضرب بقدمك الارض غضبان حنقاً ، عسى ان تفارقك .. وصرت اتعثر في مشيتي ، كمن يتلعثم

في كلامــه ، او يتلجلج الرأي في خاطره .. اذا بصاحبي ، ذي البرج العــاجي ، في الساحة ، بين بني آدم المعــذبين ، يبتسم لي ولمن حــوله . وكأنه عرف ما يدور في خلدي ، فغمغم بصوت بعيد القرار :

— لا بأس علينا .. قل انها ليست بسرقة ، بل هو التاريخ يعيد نفسه ، تارة شعراً ، وتارة نثراً .. ألسنــا في عصر تاريخي بعد ان شهدنا الحربين : العظمى .. والاخرى ؟. ألم ترَ الى الحرب الغــابرة كيف كانت اشبه بقطعة من المنظوم ، والى هذه الحرب الحــاضرة كيف صارت أشبه بقطعة من المنثور ، في انواع الكلام ؟ نحن المخضرمون ، وقد ادخلونا عنوة في التاريـخ ..

« وهلمجرا ، وهلمجرا .. »

لكن لم اغادر صاحبي حتى اعدته الى برجه العاجي .

٥ ربيعي الاول

منذ أغريت نفسي بأن نتحدث عن الربيع فأجابت بعد لأي ، وانا اكتشف اشياء واشياء ، وكأني لا عهد لي بها من قبل . ففي جنينة البيت ابصرت فجأة ، شجيرة مشمش (يزعمون انها حضرت مولدي) اعجبني منها ، اول وهلة ، هذا الزهر الاحمر الضارب الى صفرة ، عالقاً باغصانها قناديل صغيرة مضاءة في رائعة النهار ، لاطفال في عيد . لكن ما لبثت ان عرفت سر القناديل ، فاذا كل واحد منها لحظةُ عتبٍ ساخر ، ترمقني به الزهراء شزراً ، وهي تقول : « الآن رأيتني ؟ »

الآن رأيتني ؟ » تقولها وهي تتعمد صدي ، كأنما يسوءها ان أتقدم ؛ فأشارك الاطفال افراح عيدهم .

وخطر لبالي ان اذكِّر الشجيرة ، أمسها القريب حين لم تكن سوى عيدان جرداء ممتدة في الافق القاسي ، أياديَ تبسطها الفاقة في السوآل ، لا لحم عليها ولا دم .. فغاظني انها صدفت عني غير مبالية ، وطفقت ترفل في خيلائها ، كالصبية الحسناء ليلة عرسها ، ترسل آخر نظرة صادقة على حلتها ، متهادية ذات اليمين وذات الشمال .. وودعتني بنفحة من ارج ساطع ، خيل اليّ انها تقهقه به ضاحكة .

وسولت لي نفسي أن اثأر لها . فخرجت الى الجنينة ، واخذت بخصر الشجرة السعيدة ، فهصرته وهززته مغضباً ، فتساقطت المسكينة على رأسي

وفوق كتفيّ وبين اقدامي ، زهرات يتـامى .
وفيما انا واقف ارجو ان اراها مجهشة بالبكاء ،
اذا بها تتلملم باسرع من لمح البصر ، كأن لم يك
شيء ، فتصلح زيّها الذي تشعث قليلاً ، ثم تعود
في خيلائها ، مضاءة بانوار الربيع .

قلت لنفسي وانا اتكلف سروراً ظـاهراً :
« هلمي بنـا ، في هـذا اليوم المشرق من ايام
البعث ! . لنطرح الكتـاب جانباً ولنمض الى
الضاحية ، فنستقبل بشائر الربيع .. »

فتبعتـني نفسي كالمرغمـة ، وكنت اتلفت
ورائي ، حينـاً بعد حـين ، لانظر اين هي ..
ومشيت على مهل ، وانا اسرّح الطرف معجبـاً ،
كأني افتح على الكون عينين جديدتين لم يسبق
ان استعملهما احد ، كمثل نافذتين في دار مهجورة

أقفلتا زمناً طويلاً ، فلما آب الى الدار اهلها ، وفُتحت النافذتان ، اخذتا تنظران وكأن الارض بُدِّلت ، والسماء غير السماء .

وفيما نحن في الضاحية ، نبحث عن موكب للربيع تُدقّ فيه البشائر ، اذ تجهم وجه الدنيا وتربّد بالسحاب ، ثم أنزل المطر علينا مدراراً .

وهكذا عدنا من حيث اتينا ، ونحن نقص على الناس اننا رأينا الربيع يدخل البلد متنكراً في ثوب الشتاء ، مشمراً اذياله بين الوحل والماء ..

●

ــ ذهب ربيع وجاء ربيع

قالت ماري ــ ماري قرطبا ، التي لا تعرف شيئاً عن البروج ــ لاختها :

ـ تعالي .. انظري الى هذه الشجرة الزاهرة

في جنينة الجيران .. سألني : « ما هذه الشجرة ، يا ماري ؟ » اجبت : « شجرة مشمش ، يا معلمي . » قال : « أواثقة انت ؟ » اجبت : « نعم ! » واعاد عليَّ السؤال .. ثم اخذ في الكتابة ليلة بطولها .. فمزق كثيراً من الورق ، قبل ان يملأ صفحة واحدة .

بينَ بينْ •

١ الادب والمجتمع

خطر لي ، بادىء بدء ، أن أجعل عنوان هذا الفصل : « أديب في السوق ، أو صيد نهار . » وما كاد هذا الخاطر يستقر في ذهني ، حتى تمثلتني مسلحاً بكل أداة صيد ، صيد البر وصيد البحر ، اعدو في زحمة المدينة ، خلف طيوف وشخوص ، واساطير ووقائع ، ورموز وحقائق ، مما تتألف منه هذه الحياة التي نحياها ، او هذا الوجود الذي نضطرب فيه . ثم رأيتني ، وقد أدركتني العتمة ، عائداً ادراجي الي البيت ، وانا مثقل كالنحلة ، بخبرة جديدة ، من دنيوات لا عهد لي بها من قبل .

وبالفعل طاوعت نزوة خاطري ، انا المتردد الكسول الذي لم يخرج عمره مرة الى الصيد .. وهكذا وجدتني على الرصيف باسرع من لمح البصر ، مدفوعاً بقوة لا رادّ لها ، كأنما تحركت في سويدائي بغتة طباعُ آبائنا الاولين الذين كانوا ، على حدّ قول العلماء ، قناصة صيادين ، قبل ان يمارسوا الفلاحة والصناعة والتجارة .. والتوظيف والجندية ، وسواها من المهن — حرة وغير حرة (ما كان منها حراً ، في دائرة ما ، وما لم يكن حراً ، فالى حدٍّ ما .)

ولكن ائذنوا لي ان اقطع هنا سياق الحديث ، لأقص عليكم نبأ تجربة اولى من هذا النوع ، لست ازعم انها كانت موفقة ، الّا إذا كان الصياد الذي يخاف الشماتة اذا رجع خالي الجراب ، فهو يشتري صيده شراء ، بدراهم معدودات ، يعدّ

موفقاً . هي تجربة دُفعتُ اليها بعامل بسيط جداً ، لا صلة له بالكبت ولا بوراثة الطبــاع الوحشية ، عن انسان الغابات والكهوف : لقد اغرتني بها هذه النظـارات التي ركبت انفي ، وتعلقت بأذني ، ولصقت بذاتي ، حتى اكاد انسى احياناً انها اشياء مستعارة في حياتي .

كان ذلك لسنوات خلت . وكان أول عهدي بحمل النظارات أعالج ضعفاً في البصر طـال العهد به ، واعتقدت اعتقاداً جازمـاً بأنه حرمني فوائد وملذات عديدة ، لا يحصيها العدّ . ما أكثر ما منّيت النفس بأن أشهدها ، بفضل زجاجاتي الحادثة ، ما لم تكن تشهد من حالات وحركات ، وان أريهـا ما لم تكن ترى من خطوط والوان . فكأنها تعرف الحياة جملة ، فستعرفها تفصيلًا ، أو كانت [illegible]

الوجود مختلطاً ، في ابهام وغموض ، فستكتنهه تفاريق في دقة ووضوح .

لقد كان ذلك اليوم يوماً تاريخياً في حياتي . أنا رهين الكتاب ، سأعرف الهواء الطلق . سأخرج من محبسي ، كما تخرج فراشة الحرير من شرنقتها .. وجلست في الترام مزهواً مبتهجاً ، انظر يمنة ، ثم انظر يسرة ، كمن يفتح على الكون عيني طفل جديدتين ..

ماذا كانت نتيجة صيدي ، في ذلك اليوم السعيد من أيام العمر ؟ لقد دونت خبرتي الأولى ، كما يعلق الصياد على جدران بيته رؤوساً وجلوداً من حيوانات اصطادها .. أو لم يصطدها هو .. دونتها في وريقات طفت على لجّ الزمن ، كما تطفو حطام السفينة الغريقة ، قلت :

(عرفت في صباي ، أعـني : في المدرسة ، فتى عنـده من صفات الأنوثة ، الرقة والنعومـة واللين ، يكاد لا يرفع نظره الى أحد . فاذا رفعه ، يحدّثك وتحدّثه ، لم تجدّه فيك هنيهة قط ، وثغره يبتسم . كان حيياً كالعذراء ، الـتي لم تختلج — زعموا — نفسُها بعاطفة سوء ، ولم تعتلج في حواسها نارُ شهوة . صافحته اليوم على الماشي ، قائلًا له على الطاير : « كيف حالك ؟ » فاجاب : « الحمد لله ! » ومرّ خفيفاً لا تحس الأرض وطأه إن تكن الأرض تحسّ على ظهرها ، دبيب حي بين الاحياء .. الآن وقد درج الصبي ، وانطوت — بعد صحيفته — صحيفة الشباب .. الآن وقد انقضت سنون طوال كان صاحبنا خلالها — يقيناً ! — في أسر الشيطان وتجربته ، نفسه ميدان العواطف ، وحواسه وقود

الشهوات ، فهو ما زال كما عرفته ، خافض البصر
كمن يحدّثك خافض الصوت .. ولو شاء فنان صناع
اليد ، لبق الفكر ، واسع الخيال ، ان يمثل في
صورةٍ ، كل معاني الخفر أو الحياء أو الطهر ، لما
اخرج أحسن من هذه الصورة الحيّة ، وكأنها لوحة
فنية تامة الاداء والتمثيل : صورة انموذجية وكفى .
ما رأيته يوماً إلاّ ذكرني تلك النبتة اللطيفة التي ،
اذا لمستها طفلة بطرف أنملها ، اطبقت اوراقها ،
وغضت من ابصارها ، ولهذا اطلق العامة عليها اسماً
لطيفاً : « المستحية » . تبارك الله الفنان العظيم .

(وأعرف رجلًا عنده حنكة ثلاثة شيوخ على
الاقل ، جاوز الخمسين من سنيه ، حتى لم يبق في
الكون او الحياة ، شيء يصح ان يكون له مدعاة
دهشة وعجب . بيد انه لا يزال كلّ آنٍ وكأنه

الآن وُلد . ان صاحبنا هذا ليحدّثك في اقرب الشؤون اليك واليه ، وامسّها بك وبه ، لكن على وجهه ، ابداً وفي كل حال ، سيماء الذي يعجب العجب الشديد ، منك ومن نفسه ومن الحديث . يعجب اذا شربت انت ماء ، ويعجب اذا خطا هو خطوة . وكأن نظراته وملامح وجهه ، وهو يكلمك في الامور البسيطة التافهة المبتذلة ، اصداء مرجّعة تقول : « يا عجبا ! يا عجبا ! » وهذه صورة فنية انموذجية ، هي اتقن صنعاً وابرع دلالة من الصورة الاولى ، اذ لو كان في نفس « المستحي » بقية حياء ، فلا يصح ان يكون في نفس « المتعجب » اثر من عجب .. لكن الفنان العظيم ، تبارك وتعالى ، شاء ان يركب على كتفي هذا المخلوق العجيب رأساً مستعاراً ، وان يحمله في روحاته

وغدواته ، وقيامه وقعوده وسائر حالاته ، علامة الاستفهام (؟) الدائمة ، حتى ليمكن القول انه يتعجب ايضاً حين يتعجب حقيقة ، او انه متى يسألك : « لماذا ؟ » مثلاً ، فانت تغتاظ ، كأنه يقول لك : « لماذا ؟ » مرتين دفعة واحدة .. لله في خلقه شؤون !

(اني منذ اسبوع ، اذهب كل يوم ، الى قهوة « الحاج داوود » كي امتع النظر بصورة معروضة في ركن من اركانها ، هي انفس من صورة المستحي بلا حياء ، واعجب من صورة المتعجب من غير عجب : هذا العجوز الجالس الى طاولة ، وهو يبكي .. يبكي باصرار ، حتى اني ، اول مرة رأيته ، كدت — لشدة ما رثيت له — لا اقبض يدي التي همت ان تنبسط الى يده ، فتهزها بلطف ،

معزّية مشاركة في المصيبة . هو حزين ، جدّ حزين ، كأنما نُعيت اليه نفسه .. ويلعب بالنرد ، ولا يمسح دموعه . ماذا ؟ أتريدونني على ان اصف لكم ذلك الحزين بلا حزن ، الباكي من غير دموع ؟. إن لساني لعاجز عن تمثيل تلك الصورة الفنية البديعة ، بل عن تناولها بشيء من الوصف .. بحسبكم ان تتمثلوا شجرة من الصفصاف المتهدل الاغصان ، الذي يلقبه الفرنسيس بـ « البكّاء » او ان تتصوروا سماء تمطر ولا ماء .. فهذا وحده قد يوحي إلى الذهن بعضاً من مزايا الآية الخارقة ..)

ويجب الآن ان اتسلح بكل صفات الرجولة ، كي اقول لكم كيف انتهى ذلك العرض من صور اصطدتها ، لأول عهدي بالأدب « الحي » المستمد من الواقع أو « الطبيعة » . قلت بصوت

بعيد القرار : « هنالك المستحي ولا حياء ، والمتعجب من غير عجب ، وهنا ..» هنا سمعت قهقهة ، فالتفت ، فاذا بالعجوز الباكي ولا دموع ، كأنه يضحك — وهو حقاً يضحك — من خصمه في النرد . بل كيف اقول انه يضحك ، بينا هو لا يزال يبكي ، ولا يني يزيد بكاء ، كالصفصاف المتهدل الاغصان .. بكت السماء وقهقه الرعدُ !

وليت القصة انتهت عند هذا الحد ! لا . . اذ يلوح ان صاحبنا الصياد لم يأوِ الى بيته إلا كي يعود الى الكتاب ، كما تعود فراشة الى شرنقتها ، وهو ما لم يشهد مثله التاريخ الطبيعي . عاد الى الكِتاب ، فقرأ في « الفائق » للزمخشري ما نصه : (الحجاج — كان قصيراً أصعر كُهَاكِهاً . و « الكهاكه » لغة ، الذي اذا نظرت اليه كأنه يضحك وليس بضاحك ،

من الكهكهة .) فصرخ الصياد بملء فيه :
اوريكا .. وجدته : كأنه يضحك وليس بضاحك ..
كأنه يبكي وليس بباكٍ . هي الصورة التي اصطدتها
من قهوة « الحاج داوود » على سيف الابيض
المتوسط . الآن عرفته ، لأني وجدت له اسماً يغني
عن جميع الأوصاف التي لم اجدها .. ستهتفون بي :
« انها عبقرية اللغة العربية . » هي ، في الأقل ،
طبيعتها وطبيعة سائر اللغات ، على ما نرجح . لو
شئت ان تمثل انساناً يبكي أو يتصنع البكاء ،
تقول : « كِهْ ، كِهْ ، كِهْ » برَنّة حزن .. ولو
شئت ان تمثل إنساناً يضحك أو يتصنّع الضحك ،
تقول أيضاً : « كِهْ ، كِهْ ، كِهْ » برنّة فرح ..
ولطالما رأينا المغرب في الضحك تغرورق بالدمع
عيناه ، كما نشهد على الشاشة البيضاء ، الممثل

الماهر الذي — لضرورة الموقف — يبلغ منه الحزن ، آخذاً في القهقهة (أو الكهكهة) ويسمون هذا النوع : الضحك الهستيري .

ذلك ما كان من شأن تجربتي الأولى في الصيد الأدبي . فلم أكن متواضعاً اذ قلت لكم منذ البداية ، انها لم تكن موفقة إلاّ بقدر ما يُنسب الى التوفيق ، صيد الصياد المشتري . فالصياد المشتري يعدّ موفقاً اذا لم يدفع ثمن ما صاده ، غالياً . وكانت خاتمة هذه التجربة اني وقعت في شباك الفاضل الزمخشري ، وقد وقف ذلك الكهاكه ينظر ، ويضحك حقاً وصدقاً ، بين دفتيْ القاموس .

لنعد الآن ، اذا اذنتم ، الى نفسي التي تركناها على الرصيف ، معتزمة المضيّ في تجربتها الثانية ، فقد املّها الانتظار ، بينما طباع انسان الغابات والكهوف

تجيش في سويدائها ، كما لم يسبق له مثيل .

.. اذاً ما كدت اخطو خطوة على الرصيف ، حتى رأيت الى جانبي ، على غير انتظار ، جارنا المصور النقّال الارمني ، وكأنه بكّر على غير عادة ، لينافسني في مهنتي الجديدة ، منافسة غير حميدة ، وهو حامل تلك « السيبا » المشؤومة التي يشنق عليها صور الخلق او اشباحهم .. وطفق يوازن بين مشيته ومشيتي ، وحسبت حيناً انه ينظر اليّ ، في شيء من الاستخفاف ، فتحولت لفوري الى الرصيف الآخر .

وهنالك بصرت بآدمي حسن السمت والهيئة ، يمشي على طرف الرصيف كبهلوان على حبل ، متباطئاً متريثاً ، بخطى قصيرة متزنة ، كالمتفرج بكل معنى الكلمة — المتفرج الذي لا شيء وراءه ،

ولا شيء قدامه ، لكن عنده كل الوقت . ولما حاذيته ، رأيته يفرك يداً بيد ، في حركة طوعية طبيعية ، لا تدري أتنسبها الى الاضطراب الشديد ، ام الى الفرح بلقية ثمينة . وسمعته يتمتم بين شفتيه ، بكلام لم اتبينه ، اول وهلة ، خيل الي انه قريب من سجع الكهان .. كان هذا الآدمي يقول بصوته الخافت ، كمن يخاطب نفسه : « في دنيا الكدح هذه .. في دنيا الكدح هذه .. ليست الحياة لهواً ولعباً .. ليست الحياة لهواً ولعباً .. » وهو يخافت بهذا الكلام ، ثم يرجعه كالصوت وصداه . لعلها حقيقة يريد ان ترسخ في ذهنه ، لشدة ما آذته واوجعته في الماضي ، فكأنه يطمع بأن يثبتها الآن في صفحة الكون ، فلا هو ينساها ، ولا يغفل

عنها احد . بل لعله موسوس تلقف هذه العبارة من واعظ او ناسك او معلم اخلاق ، فهو يتسلى بها كالمسبحة .. وهنا ، أظنّه أحسّ وجودي ، وفطن الى ما يدور في خاطري ، فالتفت نحوي مبتسماً ، وغمز بعينه غمزاً خفيفاً يكاد لا يُرى ، كأنه يسألني : « ماذا ؟ » ويسألني : « كيف ؟ » ويسألني : « متى ؟ » في وقت واحد . فكأني وإياه على موعد ، كي يطرح عليّ جميع هذه الاسئلة ، دفعة واحدة ، في ظل ابتسامة على وجهه النحيف ، وفي بريق غمزة من عينه الساجية . وكان الجوّ حولنا مشبعاً بكهربائية ذلك الكلام الغريب : « في دنيا الكدح هذه .. ليست الحياة لهواً ولعباً .. » فشعرت بحراجة الموقف ، وخجلت من فضولي ، وخفت سوء العاقبة .. اخذت ابحث بكل قواي

عن المخرج . قلت بعد تردد قصير : « كم الساعة ، ارجوك ؟ » فذهبت ابتسامته عرضاً حتى همّ ان يضحك ، وازداد بريق عينيه حتى اوشك ان يمطر ، وكاد لا يملك نفسه من الفرح ، كأنه يترقب هذا السؤال ليثأر من فضولي .. قال متلطفاً : « الساعة ؟ . على وقتكم ام على وقتنا ؟ » قلت : « فهمت .. » وانصرفت عائداً ادراجي ، وبعد دقائق كنتُ في البيت .. حسبي من صيد النهار هذا الآدمي الذي لا يقدم ساعته ولا يؤخرها ، رغم قوانين الحكومة .. هذا الآدمي العجيب الذي يبدو غير مرتبط بزمننا .. لله ما اعظمها وانفسها واغربها صيدة ا .

يقول الرسام الفرنسي النابغة « دومييه » وهو بالطبع يخاطب زملاءه من ارباب الفن : « يجب ان

نكون من زماننا . » يجب ، بعبارة أوضح واشمل ،
ان نكون من زماننا ، وفي زماننا ، ولزماننا . أنا منذ
بضع سنوات ، افحص في البكالوريا ، وكلّ دورة
أسمع مئات من الطلّاب والطالبات ، اذا ما سُئلوا
عن الشعر الجاهلي ، يلقون علينا هذه الامثولة .
يقولون لنا : ان الشاعر الجاهلي كان خطيب قبيلته ،
وحافظ انسابها ، وحامي اعراضها ، وناشر امجادها ،
الى آخر ما هنالك من السجايا — بل الوظائف —
الاجتماعية التي كان الشاعر ، في طور (يزعمون انه
الطور البدائي) من اطوار الأدب العربي ، موصوفاً
أو قائماً بها . ولا عجب ، فالأدب مثل سائر الفنون
الجميلة ، ظاهرة اجتماعية أصلًا ، ووظيفة اجتماعية
فعلًا . وفي العمران البدائي ، نجد الفنون متصلة
بالدين ، كفروع شجرة واحدة — رسا أصلها ،

وفرعها في السماء ، من الرقص المقدّس ، الى الغناء والترانيم ، الى النقش والتصوير على جدران المعابد والهياكل ، الى التمثيل الديني في افنيتها وحول ساحاتها .. الدين — تلك المجموعة من معارف الانسان الأولى ، أو التفسير الأول للكون : بداياته ونهاياته ، واطواره وأسراره وجميع حالاته ، الحاضرة والمغيّبة .. وبين الآداب والفنون على اطلاقها من جهة ، والحياة العلمية والصناعية والاقتصادية من جهة ثانية ، تفاعل دائم مستمر ، ليس يضره شيئاً ، الغفلة أو التغافل عنه .

لست ازعم ان الأديب العربي اليوم ، رجل غير مرتبط بزمنه ، أو على الأقل بمواقيتنا . لا ، فهو في الأغلب ، يزاول مهنة أخرى يتكسّب بها ، كالصحافة أو التعليم أو عمل الدواوين ، ولا يستغني

في هذه المهن عن الساعة ــ الساعة الاجماعية .
لكن الأديب العربي ، اذا خرج الى السوق ، فهو يمضي في حاجاته المعاشية ، وقلما يذهب في حاجة أدبه أو فنه . على انه قد يبرهن ثمة على حسّ عملي لبق ، وكفاءة دقيقة شاملة . ففي مصر مثلًا ، وهي مادة ومعنى ، طليعة الأقطار العربية غير منازع ، المجلية في كل مضمار ، وقدوتنا في كل حسن وقبيح ، لا يندر ان ترى الأديب أو العالم ، وله الى جنب منبر في جامعة ، أو عمل في أحد الدواوين ، صحيفة دورية ، وشركة طباعة ونشر ، لا يفضلها من حيث « الإزدهار واضطراد النجاح » أي مشروع تجاري آخر . وظاهرة أبلغ دلالة هو اجتماع فريق من جلة الأساتذة أو أعلام الأدب ، على تأليف الكتب بالمساهمة ، سواء أفي مواضيع التدريس أم على

هامشه ، بحيث ينتفي بينهم كل تنافس وتحاسد واستئثار ، فيجمعون هكذا الى وحدة الثقافة وانسجامها ، السيطرة على السوق .. لكن لا حاجة الى القول ان ما نعنيه هو غير هذه السوق .

والحق ، ليس في مجتمعنا أشياء كثيرة يُرضى عنها ، بل كاد لا يكون فيه ما يرضي مطلقاً ، في دنيا الكدح هذه ، في جميع مظاهر حياتنا : لعل له عذراً ، وأنت تلوم .. فلو نحن طالبنا الأديب بأن ينزل الى « السوق » حيناً بعد حين ، في غير حاجاته المعاشية ، فقد طالبناه اذاً بأن ينظر ويعرف ، ويعقل ويشعر ، وينفعل ويتحمَّس ، فتدخل — ويا للمصيبة — هذه العناصر جميعاً في مادة أدبه ، وليس بعد ذلك — ويا للفضيحة — إلاّ ان نلزمه القيام بعمل اجتماعي ، بينا هو يؤثر الاعتزال في

برجه العاجي ، في تفرُّد حصين .. لا أُذن تسمع ، ولا عين تدمع . كيف - يا رعاكم الله - تريدونه على التنازل عن « رسالة » الأديب ، مستبدلاً بها « وظيفة » الأديب ؟

رسالة الاديب ! . لقد كان الانبياء وحدهم ، فيما غبر من القرون ، ذوي رسالة . فاذا كل من عليها اليوم وله رسالة : الطبيب والمعلم والصحافي والمحامي ، ويتبعهم الاديب . حلّة مبهرجة لستر الفاقة .. حبذا لو ان هؤلاء « الرسل » يقلون من التبجح برسالاتهم اقلّ كثيراً ، ويكثرون من اداء وظائفهم اكثر قليلا ..

ولقد اخذ بعضهم على اديب او (متأدب) ما ، اشتغاله بالسياسة ، زعماً منهم انه يسخّر فنه وأدبه ، بل « الفن والادب » لاغراض لا ادري بمَ ينعتونها ،

او هم لا ينعتونها بشيء ، مخافة ان يُحملوا على الخروج من دائرة الغموض والابهام التي يجدون فيها راحة نفوسهم ، مكتفين بإيماءة يبدونها ، او لهجة يتصنعونها . يقولون ان الكتّاب والشعراء هم « حفظة » القيم الانسانية « الباقية » ، وخالقو الامثلة العليا في عصر من العصور ، لجيل من الناس ، فلا ينبغي لهم ان يسفّوا ، او يتبذلوا ، او يتعرضوا لما لا يعنيهم . لكن ، تُرى ، اية سياسة يعنون ؟ أإذا كان كل قيمة انسانية ، وكل مثل اعلى ، عرضة لأدهى خطر ابتلي به المجتمع ، بينما الامم والافراد في معسكرين اثنين ، في نضال مدجج بالحديد ، مضرج بالدم ، في ملحمة كملاحم الاساطير .. تُرى ، أمن الاشتغال بالسياسة ، ان ينظر الاديب ويعرف ، ويعقل ويشعر ، وينفعل ويتحمس ، ثم يرسل

صيحة ، او يصعّد زفرة ، او يهتف لاحد المعسكرين ؟
اكبر الظن ان « هؤلاء » الادباء انما ينعون على « ذلك » الاديب ، اشتغاله « هكذا » بالسياسة ، لأنهم في اقصى ضمائرهم لا يملكون « هم » ان يهتفوا للمعسكر الآخر . فنحن لم نرهم يوماً يأخذ بعضهم على بعض ، انهماكه في سياسة ما : سياسة تعيين المخاتير ، مثله النواطير .

والآن لن احدثكم عن القرآن وأثره في بناء العالم العربي ، ولا عن شكسبير واثره في بناء التمدن الانكلوسكسوني ، ولا عن دانتي واثره في بناء الوحدة الايطالية ، الى آخر حلقات السلسلة . فهذا الاثر قد يختلف في نسبته الى العوامل الاخرى ، بعد مقارنته بها ، لكن لا جدال فيه ، بحدّ ذاته . سوى انني لا اجد ندحة عن الاشارة هنا ، الى هذه

الظاهرة العجيبة حقاً : ان الكتاب العربي المبين والطُرَف الانكليزية الخالدة ، والتحفة الإيطاليا الرائعة ، لَمِنْ حياة المجتمع وسياسة العصر في الصميم .. وهل كان الاديب او الفنان الا رجلاً من امة ، وعضواً في مجتمع — كعقرب الساعة على الاكثر ؟ انه يتكلم بلغتنا ، ويستمد من بيئتنا ، ويعيش في جوّنا : هو ابن جغرافيته وتاريخه . هو يأخذ فكيف لا يعطي ؟ . على ان كل محاولة يأتي بها ، كي ينسلخ من هذه الاصول الحية ، خطوة يخطوها نحو الانتحار ، انتحاره هو ، وتظل الحياة حياة — متطورة متبدلة متحولة . وما ادرانا ؟ فلعل هذا ما يخشاه اكثر ادبائنا ، اذا حُملوا على الانغماس في الحياة العامة — والحياة على اطلاقها — او بالاقل ، على الاتصال المباشر بها : يخشون تطور تلك الحياة

وتبدلها وتحولها ، وان يضطروا الى اكتناه هذا
التطور ، او مسايرته ، او توجيهه ، وفي الامر
ما فيه من جهد — وخسارة ، أوفي ما يقال في
وصفهما ، انهم في غنى عنهما ، وكفى الله المؤمنين
القتال . هكذا تنقطع الصلة بين الادب والحياة ،
وتبعد الشقة بين الاديب والمجتمع . لكن ينتهي
الامر بأن يستغني المجتمع عن ادب لا يجد ذاته فيه ،
اذ تلهو الامة او تكتفي بآدابها العامية — مثلاً .
ان في المجتمع حياة زاخرة لا تُعدّ حياة اي
، مهما يكُن عظيماً ، بأزائها شيئاً مذكوراً . فكيف
اذا كان هذا الفرد ، ولا همّ له الا ان يعيش متقلصاً
منكمشاً في نفسه ؟ وللجماهير التي تتعذب وتكدح
مطامح وآمال . ولها امثلة عليا تتوق اليها ، وتتطلع
نحوها ، وتيمم شطرها . قد يكون ذلك كله غامضاً

في سرائرها ، موزعاً في ضمائرها ، يتلجلج في الافئدة ، او تُتمتم به الالسن ، فهو ينتظر من يبين عنه ، ويبرزه في صورته المثلى .. فاذا لم يوجد هذا الاديب او الفنان ، فهذا الاديب او الفنان يكون غير موجود ، لكن المجتمع وحياته يظلان في الوجود .. في دنيا العمل والكدح هذه ، في دنيا الامل والفرح هذه ..

٢ تلميذ مجتهد

خرجت من البيت ، هذا الصباح ، مبكراً على غير عادة . وكنتُ أفكر في حديثي الاسبوعي ، تفكير امريء لا يترك لغده ما يجب أن يصنعه في يومه ، لكن ليس يُرجى منه تقديم العمل ، فهو أبداً على التُخوم ، بين تسويف وتسليف . وكانت الخواطر من كل شكلٍ وزيٍ ، تزدحم في بالي ، متكاثرة عليّ كما تكاثرت ، في الأَمثال ، على خراشٍ ظباؤه ، زعموا أنه لم يدر أخيراً ما يصيد ، فرجع صفر الوطاب ، خالي الجراب .

والله ما اكثر — وبوسعنا اذا انحرفت وجهة

النظر بعض الشيء ، أن نقول أيضاً في السياق نفسه : ما أقلّ — المواضيع التي يصح التحدّث عنها ، وإلا فالتفكير فيها فقط ، منذ طرأ على حياتنا هذا الحادث الذي نسميه «الاستقلال» فصرنا به وكل قديم عندنا كأنه جديد لم يسبق به عهد ، أو لم يضرب على غرار . حتى الكلمات ، اذا لم نقل : تغيّر معناها ، فقد تغيّر صداها ، كأنما تبدل الجو الذي ترنّ ، بل تترجّع فيه .

.. وهكذا لم اخط بضع خطوات أو لم اكد ، في ذلك الزقاق الذي ما كنت ، لكثرة ما عرفته وألفته ، أخشى منه أيّة مفاجأة أو أيّ شذوذ ، حتى أراني عجباً من العجب . فكأنّ الزقاق الصغير المتواضع يخرج اليوم من طوره ، ويجاوز حده .. ولقد سرت في طريقي بعد ذلك حيناً ، لا أفكر

في موضوع من تلك المواضيع التي كانت تزدحم ، الساعة ، في ذهني ، وتملك عليّ لُبي ، إلاّ قام هذا المشهد بيني وبينها ، فاختلط بها كالاخيلة المتداخلة . . ثم وجدتُني بغتة أحثّ السير ، وكأني خلف خواطري أو الظباء السوانح — لا أدري — أعدو عدواً . .

وماذا رأيت ؟ لعل ما رأيته لم يكن مما يدهش الى هذا الحد ، ولعل نفسي كانت ذلك الصباح متفرغة مستعدة للدهشة ؟ والحق اني ، منذ اخذت اقص عليكم قصتي ، اخالني قد عدت من دهشتي الاولى ، فلا تنتظروا ان افجأكم بمثل ما فجأني به زقاقي الصغير المتواضع الذي حاول مرة ، اقناعي بانه يستطيع هو ايضاً الخروج من طوره ، ومجاوزة حده :

صبي في زهاء الثانية عشرة ، يحمل على ظهره

كيساً فيه ، على ما بدا لي ، بضعة ارطال من مادة لم تثر اهتمامي او فضولي ، اول وهلة . وهو ممسكٌ الكيس باحدى يديه ، يمشي على مهل ، ويقف آناً بعد آن ، ثم يعود الى سيره الوئيد . حاذيت الصبي ، فاذا يده اليسرى مشغولة بكتاب ، كل القرائن تدل على انه كتاب مدرسي في القراءة الابتدائية ، يقرأ فيه متهجئاً بصوت خافت . . يمكن ان انسى بطيب خاطر ، كل تفاصيل الحكاية ، لكن لا احسبني انسى ، ولا اريد ان انسى ، انعكاف الصبي على درسه واستغراقه فيه ، كأن لا شيء مما حوله يعنيه ، حتى ولا ذلك الكيس الثقيل على ظهره .

رافقت الصبي خطى معدودة ، اقف اذا وقف ، وأمشي اذا مشى . ولم يكن زريّ اللباس ، ولا ضعيف

البنيـــة ـــ لحسن الحظ ـــ فيبعث منظره في نفسي
رحمة او اشفاقاً او ما بمعناهما من الالفاظ الدامعة ، لا .
سوى انني تساءلت على الماشي : « تُرى ، ما شأن هذا
التلميذ المجتهد ، والمجتهد في شروط غير معروفة او
مألوفة ؟ لعله يشتغل للمدرسة التي يطلب فيها العلم ؟
او لعله ولعله ؟ . » ثمّ استقرّ رأيي اخيراً على انه
ـــ لا اكثر ولا اقل ـــ ابن عائلة يحمـــل الى اهله
حصتهم من الاعاشة . . واذ بالصبي يغيب عن نظري
في طريق لا تنفذ . .

٣ ابن الجيران ياخذ الشهادة

استيقظت هذا الصباح ، على موسيقي تضج في اذني ، وكأنها — للقرب — تنفجر من جوارحي . موسيقى وايّ موسيقى ! نحاسية ، ولسوء الطالع كاملة الآلات والاصوات ، ترسل في « نشاز » كالمتعمّد ، خليطاً من انغام تتردد بين قعقعة السلاح وزغردة الاعراس . خُيل الي ، في وهل النوم ، انه ليس سوى حلم مرعب ينتهي معي الآن ، في برزخ الوعي واللاوعي ، بمثل ما يُختم به اغلب تلاحين السنفونيا في الغرب ، او كما تقوم القيامة عندنا في الشرق ، يوم ينفخ في الصور .

وما الخبر ؟. لقد استيقظ الحي بأسره ، وهو يتثاءب متسائلا : ما الخبر ؟ . وطفق هذا السؤال يطاير حول منازل الجيران ، بين طبقة وطبقة ، وطنف وطنف ، ونافذة ونافذة ، يميناً ويساراً ، صعداً وانحداراً ، كأسراب السنونو الحائرة لا تفتأ تبحث عن شيء تتوهمه ، عن شيء لا تجده .. ثم تضخم السؤال وتعاظم : كان همهمة ، فصار دمدمة . واذ به اخيراً ينازع الموسيقى الصاخبة سلطان الاثير . وبغتة تغطت سطوح الدور بنساء ورجال ، وازدحم الزقاق الضيق ببنات وصبيان ، وهم يتطلعون جميعاً الى جنينة ابي مصطفى ، كي يروا الموسيقى ويسمعوا الخبر !

— اميلي ! . ابن اميلي ؟ .

كذلك في بيتنا ، لم تستطع الخادم الصغيرة صبراً ، فلما آنست منا غفلة ، انسلت كالشعرة من

العجين ، ملبية داعيَ الحي الذي اخذت تتجاوب فيه ، هذه المرة ، ويا للعجب ! اصداء العيد ، دون ان يرتدي حلته البهيجة الزيّ والالوان .

وعادت اميلي وفي عينيها الخامدتين بارقة ظفر لم نعهدها فيهما من قبل : لقد جاءتنا بالخبر اليقين .

وهتفت قائلة : « ابن الجيران اخذ الشهادة ! »

ثم مالبثت ان اعادت هذه الكلمة السحرية : « الشهادة » وقد انطفأ في عينيها بريق الظفر ، ولم يبق فيهما الا الرماد من تلك الدهشة الاصيلة في نفسها ، المتسائلة عن ذلك الشيء الذي لا تعرفه ، فليست تفهم كيف يعيّدون من اجله كهذا العيد .

ما ادرانا يا اختي ؟ لعل ابا مصطفى جارنا الأميّ ، اراد في عصر العلم هذا ، ان يثأر من الأمية ، فلم يجد الا هذا .. وقديماً عهد البطل

العجوز في مسرحية كورناي ، وقد كلّت يده عن حمل السيف ، الى ابنه الفتى لذريق ، بأن يثـأر لشرفه ، ويبـارز عنه الكونت الفظ الذي لم يوقر شيخوخته . . لكن هذه حكاية اخرى ، كما يقولون .

واجتزت في طريقي ، ذلك الصباح ، بمـدرسة يُمتحن فيها الطالبون والطالبات ، لمنح الشهادات . وكأني ذهبت ثمـة ألتمسُ تكملة لقصتنا ، قصة ابي مصطفى ، فلا نتركها معلقة بين الارض والسماء . وكان اول من وقع عليه نظري ، تاجر من كبار التجار يغدو ويروح في غرف المدرسة واروقتها ، اشعث أغبر ، يتصبب العرق من جبينه ، وهو متأبط رزمة من الكتب والدفـاتر ، ليس يهمه شيء ، ولا يلوي على مخلوق . وما إن قلت لنفسي : « ماذا ؟

أتراه ، يتقدم لفحص البكالوريا ؟ » ثم يبدو لي انه قد يكون بالضد ، من الفاحصين ، حتى رأيته يسعى نحوي ، وتنكشف جثته الضخمة عن صبية تطفر وراءه ، ويعرّفني الى ابنته قائلًا ، بين مفتخر ومعتذر :

ـــ انا هكذا منذ ايام !

وركبت الترام . وكان حافلًا بالفتيان والفتيات المنصرفين من الامتحان . واذ بأحدهم في يده دفتر ، ينظر الى بعض رفاقه نظرة ذات معنى ، ثم يبدي اشارة مَن يهمّ بتمزيق الدفتر ، وهو يبتسم ابتسامة تشفٍ ، وكأن لسان حاله يقول : « اف ! انتهينا ! » فأراه بعين الخيال يسافر سفرة بعيدة يلتقي في آخرها والخادم الصغيرة التي تركناها منذ

برهة في البيت ، تتساءل عن الشيء السحري الذي لا تعرفه ، فليست تفهم كيف يعيّدون من اجله كهذا العيد .

ورجعت مساء الى البيت : الموسيقى في جنينة ابي مصطفى لا تريم ، والحي كله في عيد لا يحول .. قيل لي ان العزف والفرح لم ينقطعا النهار بطوله ، ما خلا فترات قصيرة .. لكن ما كدت اجلس حتى سمعت « الجوقة » تختم بالنشيد اللبناني ، فيصفق الحاضرون ، كما يحدث في جميع الحفلات التي تحترم ذاتها .

٤ الكسل والحرية

يعجبني في تعريف الحرية قول بعضهم : « الحرية هي أن لا تعمل ما لست تريد أن تعمله . » والفرق واضح بينه وبين ذلك التعريف المشهور المأثور وهو : « الحرية ان تعمل ما تريد .. الخ . »

لقد محص أهل النظر هذا التعريف الاخير ، فثبت عندهم ان الحقيقة التي ينطوي عليها ضئيلة جدًّا ، وانها تزداد ضؤولة على كرّ الازمنة وتطور الاحوال ، بغلبة الضرورات الاجتماعية القاهرة التي لا مفرّ منها ، والتي يتسع نطاقها تدريجاً ، إلى أن تستغرق كل شيء ، فلا يبقى من التعريف سوى أثر

بعد عين ، اذ تتمّ « غيبوبة » الفرد في المجموع ، والى الدولة المصير .

هذا التعريف المأثور ، وهو : « الحرية ان تعمل ما تريد .. » كثير الدعوى ، يكاد لا يفي بجزء مما يعد . اما التعريف الآخر ، وهو : « الحرية ان لا تعمل ما لست تريد .. » فهو اكثر تواضعاً . ولعل اعجابي به ناشيء عن ولوعي الشديد بلا (النافية) في اغلب الشؤون ، فهي اكبر معوان على عدم الاضطلاع بعظائم الامور وصغائرها ، وعلى التملص من المسؤوليات الرفيعة والخسيسة ، وبكلمة واحدة : على قلة الحركة . بل لِمَ لا نسمي الاشياء باسمائها ، فنقول انها خير معوان على الكسل ؟

ليس من همنا أن نبين هنا فضل الكسل ، او ان نشيد بذكره ، مخافة ان تسوء سمعتنا لدى

القاصي والداني . على ان من الواجب احترام بعض المبادىء المقررة التي عاشت الانسانية عليها قروناً متطاولة ، ومن الراجح انها لا تفكر في تبديلها ، ولو فكرت في ذلك لما استطاعت اليه سبيلًا . لكن ليؤذن لي ، وقد فُتح الباب على مصراعيه ، ان أتساءل على الماشي ، عن ذلك العبقري الذي سبق الى تعليم البشر أن الكسل رذيلة لا ينبغي لهم ان يتخلقوا بها ، فالتاريخ لم يذكر لنا اسمه ، كما أغفل اسماء كثير من المخترعين الذين تقدموا التاريخ . وارجح ان ذلك المعلم الاول لم يكن عاملًا يكدح ليله ونهاره ، وراء كفاف عيشه ، او لقمة يتبلغ بها ، فليس لأمثال هذا المسكين ، من فراغ البال وطمأنينة النفس وراحة الجسد ، ما يتيح لهم

« اختراع » الفضائل ، والدعوة اليها ، والسعي في نشرها .

ويبدو لنا ان ذلك المعلم العبقري كان ، على الضد ، من ذوي النفوذ والسلطان الذين وُجدوا منذ وجدت الجماعات الانسانية ، وفيها الاقوياء والضعفاء ، والاذكياء والبلداء ، أو اصحاب الأمر والنهي في جانب ، واصحاب « السمع والطاعة » في الجانب الآخر . كان السادة في العصور الهمجية يسوقون الأرقاء الى العمل لاجلهم ، ضرباً بالسياط . ثم ترقى المجتمع الانساني ، ولم يبق للسوط موضع ، فاخترعت « الفضائل » الانسانية ، وكأنها سياط من نوع جديد ، لكن للغاية نفسها . وقد دلّ هذا الاختراع الاخير على انه اعظم براعة ، واشدّ نكاية ، من السياط الاولى ، لجمعه بين الدنيا والآخرة ..

على اننا لو رجعنا الى اصل الخليقة ، يوم كان آدم في الجنة ، يسرح ويمرح ، وقد آتاه الله رزقه رغداً ، لعلمنا ان أبا البشر كان عهد ذاك متحلياً بفضيلة الكسل ، اكثر منه بأية فضيلة غيرها . لكن ، سامحه الله ! فلأمر ما غضب — سبحانه — عليه ، فأخرجه من جنته ، وقضى عليه أن يأكل خبزه بعرق جبينه ، وكدّ يمينه . فكأن العمل قصاص له كالحكم بالاشغال الشاقة المؤبدة ، عليه وعلى ذريته من بعده ، الى يوم الدين . .

ولكن ما لنا ولهذا ؟ فأنا لم اقصد الكسل اذ اظهرت سروري بطرافة التعريف الذي عنّ لبعضهم ان يطلقه على الحرية الغالية ، في قوله : « الحرية هي ان لا تعمل ما لست تريد ان تعمله . » انما عنيت تلك الامور — ولله ما اكثرها في حياتنا —

التي تضطر المرءَ الى اتيانها ، تقاليدُ لا معنى لهـا ، وتكاليف لا طائل تحتهـا . واعتقد ان ما يودّ احدنا ان لا يعمـله لو ترك له الخيار ، ولم تكرهه عليه التقاليد والتكاليف ، اكثر جداً مما يؤثر ان يعمله ، رغبة فيه وحرصاً عليه . فهو بعبارة صريحة ، يفضل على حرية العمل ، حرية « عدم العمل » وانها لعمري الحرية المثلى !

قال احد كتّاب القرن الثامن عشر الفرنسيس : « الكسل هو الفلسفة .. » واظن ان هذا ما اراده احد أقاربي الشيوخ ، اذ قال عني مذ كنت صبياً : « عمر فيلسوف .. » قالها وعلى ثغره ابتسامة إشفاق وددت ، بجدع انف الفلسفة ، لو انساها !.

٥ اليتيم العربي

ليؤذن لي أن اصارحكم في مسألة : لقد شعرت بالخطر الداهم ، منذ جاءني على حين غرة ، لبضعة ايام خلت ، هؤلاء الملأ الصالح من الذين وفروا عنايتهم السمحة ، وجهودهم المتصلة ، على ما يسمونه « اليتيم العربي » كأنّ هذا المسكين صار علماً من الاعلام ، او مؤسسة عامة . احسست بالخطر الداهم ، مذ اخذوا يحدثونني عن مآثر الخير وصنائع المعروف التي يحققونها . وادركت بالبداهة انهم — لسوء حظي — لم يقصدوني كي اتبرع لهم بشيء من المال ، فأساهم في مشروعهم الجليل ، بما لا تصح المساهمة بسواه .

ولعنت شهرتي في الناس بقـلّة ذات اليد ، وفهمت معنى المثل العامي السائر : « صيت غنى ، ولا صيت فقر ! » قلت في سرّي : « نحن الـكتّاب والشعراء (او من يدعونهم هـكذا) اذا أُصبنا بالعي وجمود الخاطر وعدم مؤآتاة البيان ، محرومون حتى من ان نفدي انفسنا بشيء غير الـكلام ! » ولعل هذا في الظرف الخاص العصيب الذي وجدتني حينذاك فيه ، اشد انواع الحرمان . ولا اكتمـكم اني حاولت بعض المحاولة ، ان افدي نفسي بشيء غير الـكلام . لـكن يظهر ان اللجنة الـكريمة لم تـكن بحاجة إلّا لمن يحدثكم ، فردت سؤلي ، ضاحـكة بالاجمـاع . وهـا انا ذا ضحيتـكم ، هذا المساء .

اليتيم العربي ! . يذهب الفـكر ، اول وهلة ، حينما يقع النظر على هاتين الـكلمتين ، الى العربي الاكبر ،

ذلك الذي عاش يتيماً ، وما زال منــذ ثلاثة عشر قرناً ، يُظِلُّ التــاريخ . وانه لمن ايسر الامور ان نتحدث عنه في هذا المقام ، فنعزي بذكره وذكراه الدنيا قاطبة . لكن لن احدثكم عنه ، لاننــا لم نجتمع هنــا ، على ظني ، للتعزية ولا للتسلية ولا لتمويه الحقــائق الموجعة . فان ذكرى النبي العربي قادرة على ان تهدينا سواء السبيل ، وان تحفزنا إلى العمل الطيب في اطوار شتى ، وان تهيب بنــا الى الاتعــاظ في مواطن عديدة . لكنها بجدّ ذاتها ، لا تطعم جائعــاً ، ولا تكسو عرياناً ، ولا تؤوي شريداً . وليس اليتيم بحاجة الى ما يعزيه ويسليه عما هو فيه ، بقدر ما هو بحاجة الى ما ينسيه . انه يتيم ، قولاً وعملاً . اخاف ان يكون من ذلك ، عــلى

الضد ، تعزية لنا نحن، وتسلية وتمويه على انفسنا ، فنحسب اخيراً اننا ، اذا ما ذكرنا محمداً ويتمه وعظمته في التاريخ ، فقد قمنا نحو « اليتيم العادي » ببعض واجبنا او بواجبنا كله . وماذا بعد هذا الّا ان يقتني كل غنيّ مترف يتيمه ، كما تُقتنى التحف الثمينة او النادرة في البيت ؟ وماذا بعد هـذا إلا ان يصبح اليتيم العربي كالمؤسسة العامة الوطنية ، أو كالتمثال من التماثيل ، او كالنصب من الانصاب ، أو كالرمز من الرموز ، فيتخذ حجة ، وينتهز فرصة يضن الدهر بمثلها ، لعقد الحفلات ، وتنظيم المهرجانات ، كأنما الدنيا ومن عليها في عيد . ثم تُنشد القصائد وتتلى الخطب ، فلا يكون همّ القائلين والسامعين على السواء — ولله ما أروعها مباراة ! — الّا مَن أجاد ممن لم يُجِد ، ومَن « احسن » ممن لم يحسن — بالطبع

نظماً ونثراً ..

كل شيء ولا هذا ! . أنا اؤثر إذاً ، وانتم ولا ريب تؤثرون ، ان أحدثكم مثلاً عن « الدرة اليتيمة » لامام الكتاب ابن المقفع ، او عن « يتيمة الدهر » لامام اللغويين الثعالبي .. بل لماذا لا نذهب الى ابعد ، فنتحدث عن « اليتيم الاصلي » ابينا آدم الذي لم يُخلق من اب ولا أُم ، فكأنه ولد يتيماً ما كان ولن يكون أصل في اليتم منه . ثم اتساءل واياكم : « هل احسّ الاب الاول ذل اليتم وحرمانه ؟ وهل أُنشئت لتعزيته وتسليته والترفيه عنه ، جمعية من الجمعيات ؟ » لكن لن احدثكم عن شيء من هذا القبيل ، لسبب بسيط هو انه قد يكون خروجاً عن الموضوع . واحب ، مرة واحدة على الاقل ، ان اتناول البحث الذي يقتضيه المقام ،

وجاهاً في غير مراوغة ، وحسبنا الله وهو نعم المعين .

ان العناية بشأن اليتيم مادة وروحاً ، تغذية وتربية ، تتصل اتصالاً وثيقاً ، بالمبادىء الادبية او الاخلاقية التي يتزيّن بها مجتمعنا الحاضر ، مفاخراً مباهياً . وفي رأس تلك المبادىء مبدأ الخير او الاحسان او المعروف — اسماء متعددة لاسم لا يتعدد .

لقد أكبَّ الحكماء والمفكرون على مبدأ الخير هذا ، يحللونه ويتأولونه ، أو يشرحونه ويشرّحونه . ولا تنسوا ان البشرية هي اليوم ، من أطوارها في طور التشريح والتحليل ، أو المراوغة والمداورة . فقالوا باديء بدء : « يجب أن نفرّق بين العدل أو مبدإ العدل وبين الخير والاحسان . فانا عادل ، إذا كنت لا انتزع من سواي ما يملكه ، ولا أمنعُ عنه ما هو حق له ، ولا انقض عهودي الخطية أو

الشفهية أو الضمنية معه ، وأنا خيّر أو فاعل خير أو صاحب معروف ، إذا جئت طواعية ، من تلقاء ذاتي ، أعمل على إسعاد الغير ، سواء أبتخفيف آلامهم الجسدية أو النفسيّة مِما لا تقع تبعته عليّ ، أم بتوفير مَلذات الجسد والروح والفكر مما لا اكون مديناً لهم به . فالعدل إذاً هو مجموع الأفعال الواجبة التي لا بُدّ من إتيانها ، والخير أو الإحسان هو مجموع الأفعال المجانيّة ، المتطوع لها ، المتبرّع بها ، والتي يكون المرء في حلٍ من انجازها . »

لكن بعض الحكماء لم يقتنعوا بالتفريق بين مبدأي العدل والخير . فهم يُرجعون مبدأ الإحسان نفسه إلى العدل ، قائلين إن الأول هو مظهر من مظاهر الآخر ليس إلّا ، بمعنى ان أعمال الخير وصنائع المعروف ليست سوى إعادة الحق إلى نصابه . فالغني

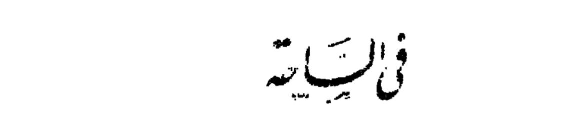
الذي « يناول » فقيراً ، ليس يعطيه ، إنما يردّ إليه حقه أو بعض حقّه .

سأكفيكم مؤنة الأخذ والرد ، والكر والفر ، حول هذه القضية وغيرها من القضايا الأخلاقيّة والإجتماعيّة التي لو لم تكُن معلقة أو مختلفاً فيها ، لأمست البشريّة في غِنىً عن جمهرة من الحكماء والفلاسفة . كذلك لن أُحدّثكم بكلمة عن هؤلاء الذين يقولون لنا ، ضاربين صفحاً عن مبدإ العدل الصرف ، وعن مبدإ الخير الصرف ، وعن ذلك المزيج الكيميّ من كلا المبدأين .. يقولون لنا متصوفين : « ما لكم ولهذه المشاكل ، ولحلولها التي لا تحل مشكلا ؟ أحبوا الفقير واليتيم ، والسائل والمحروم .. أحبوا هؤلاء جميعاً في ذات الله ، فالله وحده يجب أن تحبوه .. » هؤلاء المتصوفة لا بأس

بأن نرفعهم هم أيضاً إلى مصاف أولئك الحكماء والفلاسفة الذين يصح أن تستغني عنهم البشرية ، أو يُعهد إليهم بعمل آخر ..

لكن هنالك حقيقة لا مندوحة لنا عن الإشارة إليها ، وهي ان التوكل على « مروءة » أهل الخير والمعروف لم يقدّم النوع الإنساني كثيراً نحو الكمال الذي ننشده أو نسير نحوه . بل ان قانوناً واحداً يُسنّ ويُنفذ ، لأفضل من كل الخطب والمواعظ والشروح والحلول التي ينوء الضمير الإنساني بعبئها الثقيل ، منذ قام في الدنيا أول حكيم ، أو أول واعظ ، أو أول داعٍ الى الخير .

تُرى ، متى نلج باب المدينة الفاضلة التي لا يلهجون فيها بذكر اليتيم — حيث لا يتيم ؟



١ تعريف الامة او التعريف بها

منذ ستة اسابيع ، والاحاديث الى الشباب تترى من هذه المحطة[١] متصلة ، مساء كل خميس . ولقد كان الغرض الذي استهدفه المحدثون في مختلف بحوثهم ، ولم يزل ، تعويد الشباب التفكير السليم لاكتناه حقائق الاشياء ، اكثر منه الدعوة والنصيحة والموعظة ، اعتقاداً ان التوجيه الحق للشباب المثقف هو ثمة ، نحو المعرفة الصحيحة والفطنة الرشيدة . ولعمري متى تطرح المسائل كما ينبغي ، وتفهم المشاكل على علاتها وفي حقيقتها ، مع جميع ما يلابسها

[١] محطة راديو الشرق ، بيروت .

من حالات ، ويلازمها من مناسبات ، فقد سلكنا اقصر السبل وآمنهـا ، بل السبيل الوحيدة الى اجوبتها وحلولها . وإلا فنحن نتخبط في مكاننا ، دون ان نتقدم خطوة الى أمام .

ذلك ان ما يُطلب منا ليس الجواب عن مسائل صرف نظرية لا تبنى عليهـا اية نتيجة عملية ، ولا حل مشاكل مجردة كالتي يتلهى الاولاد بمطارحتها فيما بينهم ، وهي لنفسها تُراد .. كلا . ان مسائلنـا ومشاكلنـا حيوية ماسة لازمة ، لا مندوحة عن مواجهتها ، كما انه لا مندوحة عن مواجهة الحاجة الى الخبز مثلًا . وكما انه يجب ان يوجد الخـبز لكفاية الجوع الذي يحسه الانسان ، فكذلك يجب ان يجاب عن تلك المسائل ، وان تحـل تلك المشاكل ، او بالاقل أن تقترح الاجوبة والحلول الحسنة الملائمة .

ولا تخدعنكم كلمة « الاقتراح » فتقولوا اننا نبقى هكذا في دائرة النظريات المجردة . لا ، فكل جواب حسن ملائم ، لاية مسألة فهمت كما هي ، في حقيقتها وعلى علاتها ، مع جميع ما يلابسها من حالات ، ويلازمها من مناسبات ، يحمل في ذاته اندفاعاً إلى التحقيق ، او طاقة عملية لا شبهة فيها . لكن حذار من الوعاظ المرشدين الناصحين الذين يتوارون وراء ستار كثيف من المفهومات التي لا يفهمونها ، أو المدلولات التي لا تدل على شيء ، والذين يتخلفون خلف اصداء مرجعة من الالفاظ الطنانة ، والعبارات الرنانة .. فهؤلاء نفر من الخلق لا يواجهون المشاكل ولا يوجّهون نحو حلها . وهل تملكُ ان توجه امرءاً او جماعة ، شطر غاية من الغايات ، وانت تولّي هذه الغاية ظهرك ، او تسير في الجهة المعاكسة ؟

او هل تملك ان تشير الى هدف من الأهداف ، وأنت لا تتبيَّنه ولا تعيّنه ، فكيف لك بان تصيب المرمى ؟

ذاك أوّلاً .

وثانياً : ان إدارة هذه المحطة لم يقنعها أن تعمل على توجيه الشباب المثقف في سبيل التفكير الصحيح ، شطر حقائق الأُمور وحسب ، بل ارتأت فوق هـذا ، ان تعوّدهم التفكير المنظَّم المطَّرد الشامل . ان حياة الفرد في المجموع ، وحياة المجموع في العـالم ، وما يثار حولهما من مسائل ، ويعرض لهما مـن مشاكل ، إن هي إلّا أجزاء من كل : عناصر في جسم مركب ، تتمازج وتتفاعل فيما بينها . فلا مظهر من مظاهر النشاط في ميدان من ميادين الحياة الفردية أو العامة ، إلّا وله أثرٌ أو ردّ فعل

في سائر المظاهر ، في سائر الميادين : أثر أو ردّ فعل لا يبطئ ولا يهمل . وكذلك أيضاً ، لا مراء ، مظاهر « عدم النشاط » الذي لا يصح ان يطرح من الحساب ..

لهذا ارتأت إدارة المحطة دعوة نفر من أهل الرأي وأرباب الاختصاص ، إلى بحث موضوعات عدّة ، لكن متفرعة عن موضوع أساسي شامل شمولَ الحياة التي لا تعرف التجزئة أو القطيعة ، والتي لا شيء فيها يضيع ، فلن يضير هذا الشي أننا أغفلناه أو أهملناه ، أو عمينا أو تعامينا عنه . عسى أن تكون المحاضرات العشر التي سوف يستغرقها الموضوع ، كالفصول المتآلفة في كتاب ، أو كالحلقات المفرغة في سلسلة ، فنحمد مغبة هذا المسعى وأثره في الميدان الثقافي ، ثم في سائر الميادين .

الموضوع العام هو « بنـاء الأُمة » . ومن الطبيعي ان يُبدأ بتعريف هذا المدلول — أو الواقع الراهن — الذي يسمونه « الأُمّة » قبل ان يُؤتى على تفصيل اطواره ، ومظاهر نشاطه . فلا شيء أوجب لاكتناه الأُمور وسلامـة الاستنتاج ، من تعريف صحيح ، « جامع مانع » -كما يقولون في تعريف « التعريف » . واكثر المنـازعات إنما تنشأ عن الاختلاف في فهم الألفاظ الـتي نستعملها جميعاً ، لكن لا ندرك مدلولاتها على صورة واحدة ، واضحة الخطوط والألوان . فكأن الكلم محرّفة عن مواضعها والمعاني غريبة عن ذاتها . وتبدأ الضعوبة أو تعظم ، حينما يُكلَّف الذهن عناء الانتقال من المدركات الفردية والحسيّة ، إلى المدركات الاجتماعية والمعنوية . فليس من العسير على امريءٍ ان يفقه ذاته بوصفه شخصاً

مادياً منفرداً ، وان يثبت تصرفاته في دائرتها المباشرة ، لكن العسير ان يفقه المرء تلك الذات المعنوية التي نسميها الجماعة أو الأمة ، وان تقوم في ذهنه — إذا قيل له انه عنصر في الجسم المركب — صورة واضحة عن حقيقة هذا الجسم ، وعن نوع علاقاته به . والعسير ايضاً ان يتجاوز نظره في اعماله وشؤونه ، ذلك النطاق الضيق الذي يحسه مباشرة ، الى ما هو اوسع فاوسع ، كالدائرة او الدوائر التي يحدثها حجر يُقذف به في حوض . والى ان يعرف الفرد هذا كله ، والى ان تصير هذه المعرفة شعوراً طوعياً دقيقاً ، يُحتاج إلى ثقافة ورياضة يدعمها أبونا التاريخ . ونحسب ان هذا هو ما يعنونه بالوعي القومي الصحيح .

يعتبر علماء الشرع الجماعات المنظمة ، كالشعب والامة والشركات والمؤسسات ، اشخاصاً معنوية او

تصورية او اعتبارية ، بحجة ان العناصر التي تؤلفها (وهم الافراد) لا تربط فيما بينهـا عرى مادية ملموسة ، بل عرى ذهنية غير محسوسة . والواقع ان للاشخاص المعنويين وجوداً راهناً حقيقياً ، وان لهم اغراضاً يستهدفونها ويعملون على بلوغها ، بواسطة أعضاء او « مصالح » يناط بها هذا العمل ، وهي مهيأة ومعدّة ومعينة له . فالامة ، كأفرادها ، كائن طبيعي لازم . ومما يرجح صحة ذلك المذهب ايضاً ان ثمة اشياء تُنسب الى الجماعة او الامة ، هي في الاصل مما ينسب الى الأفراد ، فيقـال : روح الأمة ، او ثقافتها ، او نشاطها ، كما يقال : روح الفرد ، او ثقافته ، او نشاطه .

والآن ما هي ، بل اوثر ان اقول : « مَن »

هي الامة ؟

الامة جماعة من افراد يأتمرون لسلطة واحدة ، ويخضعون لشرائع واحدة ، تتألف منهم دولة هي مظهرهم السياسي بين الامم ، ويقوم بعبء السلطة فيهم عضو من الجسم المركب يطلق عليه اسم « الحكومة » .

ذلك تعريف الامة من أقرب سبيل ، بعد ان تصير امة لا اختلاف فيها ، ولا خلاف حولها . أما الامة التي لمّا توجد تماماً ، ويعوزها بعض الشروط القليلة التي ينطوي عليها هذا التعريف الشرعي ، وهي ما زالت في مستهل حياتها السياسية ووعيها القومي ، فقد تطالبنا بتعريف آخر يكون اكثر شمولاً وابعد غوراً ، على السواء — يتناول مبادىء الامور واصولها ، كما يُبدأ بالقصة من اولها ، وليس

من آخرها ..

والذي نراه ان اصح تعريف للامة ، للأمم على اطلاقهـا وللامة الناشئة بنوع خاص ، هو هذا التعريف الجامع المانع ، على قول المَناطقة : « الامة جماعة ثابتة من الناس ، مؤلفة تاريخياً ، ذات لغـة مشتركة ، وارض مشتركة ، وحيـاة اقتصادية مشتركة ، وتكوين روحي مشترك يجد عبارتَه في الثقافة المشتركة . »

ويضيف صاحب هذا التعريف : « ان كل سِمة من السمات التي ذكرناها لا تكفي ، اذا أُخذت على حدتها ، لتعريف الامة ؛ بل نذهب الى ابعد من ذلك ، فنقول : يكفي ان تنعدم سمة واحدة منها ، كي تنقطع الامة عن كونها امة . »

ومما يسترعي الانتباه في هـذا التعريف الذي

اعتمدناه ، ان لا إشارة فيه ، أدنى إشارة ، إلى تلك السمة العلمية الكاذبة التي يسميها النازي « وحدة الدم أو العرق » جاعلين منها أساس بناء الأمة . فقد أثبت العلم بطلان هذه النظرية العرقية التي تدّعي للعلم كذباً وخديعة وجرًّا لمغنم ، على نحو ما كان يدّعي مولى من الموالي لاحدى قبائل العرب ، فيهجيه بذلك الشعراء ويعيبون عليه نسبته المكذوبة . وليس في العالم اليوم أمّة متمدنة أو في سبيل التمدين ، يصح ان تدعي لنفسها وحدة الدم والعرق ، أو صفاءهما ، كما انه من الضلال الاعتقاد بامكان التوصل الى شيء من هذا ، بضرب أو بضروب من الانتخاب الصناعي المنظم ، يُحاوَل به عجن المادة الانسانية الحيّة ، على ما يزيّن الهوى ويصوّر الوهم .

ولعل الالمان أنفسهم من أبعد الشعوب الاوربية عن وحدة العرق المزعومة ، أو صفاء الدم المكذوب . لنأخذ مثلًا : البروسيين الذين يدّعون تجسد المزايا الالمانية فيهم على وجهها الاكمل ، فماذا نرى ؟

يحدثنا التاريخ انهم كانوا يُعرفون ، في عهدهم البدائي ، بالبوروسيين ، وانه لم يكن عهد ذاك ما يربط بينهم وبين سكان المانيا الآخرين ، حتى لقد كانت لهم لغة خاصة تختلف عن سائر اللهجات الجرمانية ، عُفِّيَ على آثارها منذ ثلاثة قرون ، لا أكثر . وبين هذه اللهجة البوروسية واللغة اللتوانية التي يتكلمون بها اليوم في لتوانيا وفيلنو وغرودنو ، قرابة لا تجحد .

وكذلك ليس بضائر الأمة الفرنسية انها تألفت

على مرّ الأجيال ، من عشرين عنصراً صهرت جميعاً في بوتقة التاريخ ــ التاريخ بمِحَنِه وأمجاده ، بانكساراته وانتصاراته . وكان من هذا التاريخ نفسه ، العام ١٧٨٩ العظيم الذي استهل عهداً جديداً في العالم .

لا مندوحة إذاً من ان ندع جانباً ، في تحديد الامة والتعريف بسماتها ، مقاييس العلوم الطبيعية والبيولوجية ، بل تلك « اليوجنية » التي تستهدف تحسين السلالات الحيوانية ، ويزعمون ان في طوقها ايضاً ترقية الاعراق البشرية وتصفية الدم الانساني . فيجب ان نعتمد في تعريفنا ، العوامل الاجتماعيـة ــ الجغرافية والتاريخية ، وكل عامل من هذه العوامل يحتاج الى بحث منفرد لا يتسع له المقام .

الأمة جماعة ثابتة من الناس : ليست خليطاً عرضياً يدّعي لوحدة عرق مكذوبة ، او لصفاء دم

مزعوم . تألفت بعوامل من التاريخ ، وليس بعوامل متكلفة من الانتخاب الصناعي . ذات لغة مشتركة ، وحيـاة اقتصادية مشتركة ، وارض مشتركة ، وتكوين نفسي مشترك يجد عبارته في الثقافة المشتركة .

ولهذه الجماعة من الناس التي تسمى « امـة » وجود حي راهـن هو وجود الافراد الذين تتألف منهم ــ وزيادة . وهذه الزيادة هي التي تجعـل من مجموع افراد الامة كياناً متميزاً عن كيان كل فرد منهم . وهي تحيا حياتها الخاصة ، وتستهدف اغراضاً معينة ، فتعمل على بلوغها بواسطة من ينـاط بهم ذلك ، في داخلها وبين سائر الأمم .

٢ النتيجة العظمى

لبضعة أيام خلت ، إذ كنا نتحدّث عن هذا المؤتمر[1] سألني أحد الأفاضل ، من الذين يعنيهم ان يعرفوا أكثر ما يمكن عن النشاط الفكري والسياسي في البلاد .. سألني عن هذه العصبة ، عصبة مكافحة النازية والفاشيّة في سوريا ولبنان ، قال : « ما هو العمل الايجابي الذي تقوم به عصبتكم ؟ بل أثمة عمل ايجابي تقوم به ؟ »

ولعله أراد ان مكافحة النازية عِبء تنهض به الأمم المتحدة في ميادين القِتال ، وفي ميادين

١ اجتماع ثقافي عقدته عصبة مكافحة الفاشية والنازية .

الانتاج الصناعي ، وفي ميادين السياسة الدولية .
فما تكون عصبتنا نحن ، في الخضم المتلاطم ، أو
العاصفة الثائرة ؟ ـــ ريشة أو بعض ريشة .. إعلان
لرأي نافع ، أو تصريح عن موقف حسن .. لكن
إعلان بسيط ، وتصريح ساذج ، يشبهان من عدّة
وجوه ، مـا ندعوه تجوزاً ، بالبغض العذري أو
الأفلاطوني .

« ما هو العمل الايجابي الذي نقـوم به ؟ بل
أثمة عمل ايجابي ؟ » لقد أتى ذلك الفاضل على ذكر
الايجابيّة في سؤاله الواحـد مرتين . فلو اني أمهلته
إلى الثالثة ، لأمسينا بضرب من السحر ، أداة من
أدوات الدفاع السلبي ، نتلهى حيناً بعـد حين ،
بخنق الأنوار ، وإطـلاق صفارات الإنذار ..
وكفى الله المؤمنين القتال .

لكنني لحسن الحظ ابتسمت . فغاظته ابتسامتي الخفيفة كشيء إيجابي .. وأنكر بشدّة أن يكون ذلك جواب سؤاله الضخم . قلت : لا . إن هو إلا خاطر بدا لي ، وليس بسر من الأسرار . ان بعض اخواننا في العصبة ، كلما سمع أو قرأ شيئاً عن بوادر « انهيار المحور » كما يسمونه ، يسرّه ان يتكلّف الدهشة العظمى ، والحيرة الكبرى ، فيلتفت نحوي قائلاً : ونحن ؟ . اذا ما انتهى أمر النازية والفاشية في العالم ، تُرى ما نحن صانعون ؟ أتريد ان نصبح في العاطلين ؟ هلمّ بنا منذُ الآن فبحث عن عمل آخر ..

وهكذا فعصبة مكافحة النازية اليوم ، في رأي هذا الصديق المازح وذلك السائل الجاد ، بين عمل لم يبدأ ، وعمل يوشك ان ينتهي .. وهكذا فثمة

سؤال ما زال معلقاً ، وسأحاول جهدي ، اكتناهـه اولاً ، والاجابة عنه ثانياً .

قد تكون احدى نتـائج هذه الحرب ، وفي بلدان هذا الشرق العربي بنوع خاص ، ان الحرب بما يلازمهـا من ظروف استثنائية ، ادخلت أو اوشكت ان تدخل الجماهير الذين يسمون « العامة » في دائرة نظر من يسمونهم : القـادة — اعني المفكرين والادباء ، بَلْهَ رجالِ السياسة . . العامة وما يلابسهم من حـالات ، ويتصل بهم من شؤون ، على اختلاف انواعها ، او المعاشية منها في الاقل ، ثم تتبع سائر الشؤون . وبديهي ان السواد الاعظم من ابناء البلاد ، كانوا ، الى زمن غير بعيد ، فيما وراء افق الخاصة : كالالوان النُفل التي ليست تراد

لذاتها ، انما يراد بها ابراز صور الرسام .

ونخال ان اغلبية هذه الفئة من الذين سُموا أو يسمون انفسهم « الخاصة » قد فتحت أبصارها على ذلك المشهد ، مشهد تقدم الجماهير حتى تسدّ الافق ، بشيء من الذعر و كثير من الدهشة ، لكن لن يلبث الذعر حتى يغطي على الدهشة . فلطالما اصطلحنا على تنحية « العامة » من ميادين الحياة العامة ، بما تمثله هذه الحياة من ضروب الادارة ، وادوات الحكم ، وتصنيف العلاقات ، وتوزيع الخيرات ، وتقرير التكاليف ، كأن هذا جميعه متاع هؤلاء الخاصة ، ليس ينازعهم فيه منازع : لا شركة للعامة في الحياة العامة .. ومما تحسن الاشارة اليه هنا ان « العامة » و « العام » لا تدلان في الاصل اللغوي ، على معنى من معاني الامتهان أو الازدراء او الهجو ، التي اضافها

اليها « الخاصة » او « الخاص » ، بل بالضد .

وبوسعنا القول ان المفكرين في ظهرانينا ، ظلوا مدة مديدة ، يتخبطون على تخوم النظريات الغيبية ، والادباء يتنادرون ويتظرفون فيما بينهم ، ورجال السياسة ، حتى « الوطنيين » منهم ، او الذين يسمون هكذا ، لا يعرفون ، او يتجاهلون ان الوطن الذي ينتسبون هم اليه — وليس الوطن الخيالي الذي يتوهمون انه ينتسب هو اليهم — ان ذلك الوطن الحقيقي قد يتجاوز حدود ذواتهم . والحكم سجال ، تتولاه فئة ، ثم تتولاه الفئة .. نفسها .

أما السواد الأعظم ، بهمومه الملحة وآلامه المباشرة ، وامانيه وآماله ، التي لا تفتأ تطلب من يحسها ويكتنهها ويترجم عنها ويعمل على تحقيقها .. اما السواد الأعظم ، بمسائله ومشاكله التي لا تفتأ تجد

وراء اجوبتها وحلولها السريعة.. أما السواد الأعظم بما يجيش في احشائه من حياة زاخرة مضطربة مشتتة تلتمس صيغها واشكالها ، وسبلها وغاياتهـا .. ان هـذا السواد الأعظم يكاد لا يشغل حـيزاً من الدائرة — الرحبة الضيقة — التي اقام حولها مفكرونا وادباؤنا وساستنا ، كسدّ الصين .

واذا كانت بلاد الشرق العربي حديثـة عهد بتلك الظاهرة الاجتماعية ، ظاهرة تقدّم الجماهير حتى تسد الأُفق — كما نتصوّرها ، فالمجتمع الغربي قد عرفها وتمرّس بها ، وانتهج ولم يزل ينتهج مختلف الطرق لمعالجتهـا ، وبعضها وُفق ، وبعضها اخطأه التوفيق . وأكبر الظن ان هذه الحرب ، بل الرجة العظمى في اسباب الحياة ، وفي الافهام والضمائر ، ستكون أوسع خطوة يخطوها العمران البشري نحو

استقراره الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، وقد كان يقنع بالمسكنات .

ولن تكون بلادنا ، رغم ذلك السد الوهمي ، بمعزل عن هذه الحركة العامة التي تدفع الأمم إلى احتذاء اساليب جديدة في الفكر ، وصيغ مستحدثة من الحياة . ذلك هو الطوفان ، و « لا عاصم اليوم » . بحسبنا ان نستبق الاحداث ، فنوفر عن أنفسنا ما كابدته وتكابده الأمم قبلنا وحولنا ، من الاختبارات الموجعة ، والاصطدامات الناهكة .

قال أبو حيان التوحيدي : « سألني وزير صمصام الدولة عن زيد بن رفاعة في حدود سنة ٣٣٣ قال : لا أزال اسمع من زيد بن رفاعة قولاً يريبني ، ومذهباً لا عهد لي به . وقد بلغني انك

تغشاه وتجلس اليه وتكثر عنده . ومن طالت عشرته لانسان أمكن اطلاعه على مستكنّ رأيه .. فقلت : ايها الوزير ! هناك ذكاء غالب وذهن وقّاد . قال : فعلى هذا ، ما مذهبه ؟ قلت : لا يُنسب إلى شيء . لكن أقام بالبصرة طويلًا ، وصادف بها جماعة لاصناف العلم فصحبهم . وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنَصيحة ، فوضعوا بينَهم مذهباً ..» الى آخر ما ذكره ابو حيان من امر جماعة اخوان الصفاء .

فلو تطارحنا الآن مثل ذلك السؤال عن عصبة مكافحة النازية ، فماذا نرى ؟

نرى طائفة من المثقفين ، وهم يؤمنون بالثقافة — بالثقافة على اختلاف انواعها .. كما يفهمها الغرب اليوم ، وهو قريب جداً من مفهومها في

المجتمع العربي ، في عصوره الزاهرة ، اذ كان متطوراً متحولاً زاخراً بالحياة في جميع عناصرها ومظاهرها ، ومتجانساتها ومتناقضاتها . وهم يؤمنون بضرورة تلك الثقافة ، ولا يعرفون شيئاً اوجب منها لهم ولبني قومهم : يريدون ان يتكاثر عدد المثقفين ، إلى أبعد حدّ ممكن .. فطبيعي إذاً ، جدّ طبيعي كما يقولون ، ان نعتقد ، في جملة ما نعتقد ، بأن من حقنا ومن واجبنا على السواء ، ان نرى رأياً في كيف يجب ان تبنى الأمّة ، وفي كيف يجب ان تُساس الأمّة ، وفي كيف يجب ان تعيش الأمّة .. وفي هذا نحن لا نفرق بين حق وواجب .

وان هذه الطائفة من المثقّفين أيضاً قد

فتحت أبصارها على ذلك المشهد ــ مشهد تقدم الجماهير حتى تسد الافق ، افق الحياة العامة ، لكن ليس بشيء من الذعر ، بل بكثير من الابتهاج . وبوسعنا القول انها تساعد على هذا التقدم . فالمفكرون منها لا يتخبطون على تخوم النظريات الغيبية ، والأدباء منها لا يتنادرون او يتظرفون فيما بينهم ، ورجال السياسة منها ، ولا سيما الذين يوصمون بـ « الدولية » يعلمون ، بل يحسون ان الوطن الحقيقي يبقى وتقضي ذواتهم .. فهو وطن الجماهير ، او العامة ، او السواد الاعظم . ولا بأس بأن يُجعل للعامة « بعض » شركة في الحياة العامة .

قبل ان تنشأ عصبة مكافحة النازية ، كان الافراد الذين تتألف العصبة منهم ــ لحسن الحظ ــ موجودين .. موجودين بصفاتهم التي ذكرت بعضها

وليؤذن لي ، تطميناً لنفسي ولمن شاء منكم ، ان لا احاول ، لحظة ، افتراض عدم وجودهم .

ان بلادنا ومَن عليها متصل بالكون وحياة اممه وشعوبه ، فلا شيء مما يحدث فيه ، لا يعنينا ، سواء أكرهنا ام رضينا . وليس ينفعنا التجاهل ولا الانكار ، بل اخلقْ بنا ان نرضى بتلك الصلة التي تزداد توثقاً ، فنكون على بينة من امرنا . نحن جزء من كل ، فلن نكون بمعزل عن الحركة العظمى التي تدفع الامم الى احتذاء اساليب جديدة في الفكر ، وصيغ مستحدثة من الحياة .

سينهار المحور ، وسيقضى على النازية المتجسدة في افظع الصور التي عرفتها الدنيا ، وسيزول أعظم خطر يهدد معالم قوميتنا ، ومظاهر حريتنا ، ومقومات حياتنا .. لكن صديقي الذي يتساءل : « تُرى ما

نحن صـانعون ؟ أتريد ان نصبح في العاطلين ؟ »
انما يتصنَّع الدهشة والحيرة تصنُّعاً . فهو يعلم مثلي ،
مثلنا جميعاً ، اننا لن نعدم عملا ..

٣ ما يؤلف ويجمع

نحن — ولا نقولها تمدحاً أو تبجحاً ، بل تقريراً لواقع بسيط ، وتذكيراً بماضٍ يكاد لقربه منا ، وانغماسنا فيه ، يكون حاضراً — نحن فريق من أهل هذا البلد ، كنا ولم نزل ، اذا فكرنا في لبنان ، أو في الأقطار العربية المجاورة ، أو في الشرق عموماً ، لا نفكر « لبنانياً » فحسب ، ولا « عربياً » فحسب ، ولا « شرقياً » فحسب ، بل نفكر أيضاً « دولياً أو عالمياً أو إنسانياً . » ومن هذا الباب الواسع دخل أحدهم في السياسة الوطنية اللبنانية.

لم يخطر لنـا ذات يوم ببال ، اننـا من قوم منكمشين على انفسهم ، في وطن منعزل في ذاته . كذلك لم نكن بحاجة إلى كثير من الفطنة والمعرفة والروية ، كي ندرك ان انكماش الامم على نفسها ، وانعزال الأوطان في ذاتها ، امسى في هذا الزمن ، وهماً من الأوهام ، وانه في الغالب وهم مؤذٍ خطرٌ إلى أبعد حد . نحن على مثل اليقين من ان تفكيرنا هو الصحيح ، وطريقتنا هي المثلى .. حتى يثبت — ولن يثبت — العكس . نحن في عصبة مكافحة النازية والفاشية ، ونحن في جمعية اصدقاء الاتحـاد السوفياتي ، ونحن في صف الامم الحرّة المتحدة ، أقرب إلى لبنان ، وإلى العروبة ، وإلى الشرق .

كان أبي رحمـه الله ، قبيل الحرب العظمى الماضية ، يدعـو الله صبحـاً ومساء ، ان يرمي

« الدول » بعضها ببعض ، ويريد بالطبع : الاجنَبية
ــ اوروبة جملة . وكان يقول لي في تفسير تلك
الدعوات الحـارّة المتصلة ، اننا لن نرتاح إلا متى
شغلت اوروبة بنفسها ، فتأكلت ونزفت قواهـا ..
ان اوروبة شُغلت بالفعل ، لـكن هل ارتحنا نحن ؟
لا ، بل قد أصابتنا تلك الحرب ، خلال أربعـة
أعوام سود ، بادهى وبلاتها . فلما انتهت كالعـادة
بمعاهدة ، لم يـكن أعجل من « الدول » إلى الاشتغال
بنا ، حتى ظُن اننا همها الأكبر ، وشغلها الشاغل .
إن أبي رحمه الله كان طيب القلب ، حسن القصد ،
لـكن لا يفـكر تفكـيراً سلياً ، لا يقدر تقـديراً
صحيحاً ، لا يُدخل في حسابه السياسي ، خفـايا
الامور ــ نعني اسبابها ونتائجها البعيـدة غير
المباشرة .

ولأمر ما سميت تلك الحرب العظمى حرباً عالمية ، أو حرب توزيع العالم . فمن البديهي ، ونحن جزء من العالم غير منفصل أو منعزل ، أن تكون تلك الحرب حربنا نحن أيضاً ، وفي الدرجة الأولى . أما قررت مصيرنا إلى حين ، فعشنا في هذا « المصير » نحواً من خمس وعشرين سنة ، حتى ادركتنا هذه الحرب العالمية الثانية ، ولا أدري ببركة أي دعاء أو أية صلاة ؟ وما من شك في ان هذه الحرب هي حربنا أيضاً ، من البداية إلى النهاية ، بل قبل كل بداية وبعد كل نهاية .. لكن أكبر الظن انها ستكون فرصة مؤاتية ، لكي نقرر مصير ذاتنا ، هذه المرة ، بذاتنا .

النازية والفاشية ؟. أسماء عجمية ، لا عربية ولا لبنانية !

أصدقاء الاتحاد السوفياتي ؟ عجباً ، أين نذهب لنختار اصدقاءنا !

في صف الامم الحرّة المتحـدة ؟ . من أين إلى أين !

لسنة أو سنتين خلتا ، كان يخيل إلى بعضهم ، وما كان أكثر هذا البعض ! اننا تارة نحارب طواحين الهواء : خصوماً لا وجود لهم .. وتارة نغترب مهاجرين إلى أقصى المعمور ، لنصادق من ليس لنا به حتى علاقة تجارية .. وتارة نحشر نفسنا في صف لا محل لنا فيه ، حيث يُنظر الينا كما ينظر الى قريب معوز متطفل غير مرغوب فيه ، ثم لن نلبث حتى ننبذ تحت المائدة : مائدة الامم الحرة . على اننا نرجو ، بل نؤكد ان ستكون لنا مكانة أعلى من تلك المكانة الوضيعة التي يتصورها المتشائمون ، او

يتمثلوننا فيها . انما يجب ان نعمل شيئاً ، بل اشياء ، لنكون بها جديرين ، فنمارس حقنا الطبيعي والمشروع في الحياة الحرة المستقلة الآمنة الرغدة التي تطمح اليها نفوسنا ، وتستهدفها جهودنا ، منذ اجيال وقرون .

لقد اثبتت الحوادث ان النازية التي اخذنا على نفسنا مكافحتها ، حيثما ثُقفت ، وبأي مظهر تبدّت ، ولا سيما في شكلها الجرماني المنكر ، خصم اضرى من طواحين الهواء . وهـا هو الوحش المتلري ، المضرج بدمه ، تحت ضربات الجيش الاحمر العظيم في الشرق ، والجيوش البريطانية والامريكية والفرنسية في افريقية ، والسلاح الجوي الحليف في الغرب ، والمقاومة الخفية والعلنية في بلدان اوروبة المحتلة . . ها هو الوحش المتلري لم يصرع بعد ، لا يزال

باسطاً على العالم ظله المخوف ، المنذر بالويل والدمار ، والاستعباد والاستعمار .. على ان للآفة النازية رؤوساً كطلع الشياطين ، فلعلها هي شجرة الزقوم التي رسا اصلها في الجحيم .

كذلك ، اذ نحن اخترنا الاتحاد السوفياتي صديقاً يناط به الرجاء ، لم نبعد الشقة ، او نُطِل الرحلة ، كي نعود اخيراً بالعجيب المستغرب . لا ، فالاتحاد السوفياتي الذي دفع مباشرة عن بلادنا وبني قومنا ، ببطولة ابنائه المجيدة ، اذى الحرب وويلات الغزو النازي .. والاتحاد السوفياتي الذي يؤدي اليوم قسطه الاكبر في الدفاع عن حرية العالم وعن تراثه المدني ، ان لا تعبث بهما ، أو تعفِّي عليهما ، القطعان النازية الضارية .. والاتحاد السوفياتي الذي نعتبره حقاً ، ارقى مظهر للحركة التقدمية الانسانية .. نحن لم

نتطفل ، ولم نفرض صداقتنا على هذا الصديق العظيم فرضاً . فهو منذ نشأته الاولى ، هو الذي محض الشعوب الصغيرة عطفه ورعايته في الدنيا قاطبة . وهو هو الذي بنى سياسته الداخلية والخارجية على ركن متين من حق الامم في تقرير مصير ذاتها بذاتها . نحن ، على الأقل ، نحسن اختيار اصدقائنا .

ان للاحداث منطقاً لا محيص عنه . فليس من الزعم الباطل ، او الادعاء الفارغ ، قولنا الآن ، ان صمودنا في صف الامم الديمقراطية المتحدة ، ومكافحتنا النازية والفاشية ، يوم كان هذا الاسم غير معروف في بلادنا رغم وجود المسمى ، وصداقتنا للاتحاد السوفياتي الذي لا يفتأ يطنّ في اذنه ذباب الدعايات الكاذبة ، هي جميعاً حلقات مفرغة في سلسلة

الحوادث التي تعاقبت على بلادنا . فميثاق الاطلسي يبشر العالم بنظام يكفل للافراد وللامم ممارسة حقوقها وحرياتها ، ومندوب فرنسا المحاربة يعلن ، بالاتفاق مع حكومة بريطانيا العظمى ، استقلال هذه البلاد التام ، ثم يضرب موعداً قريباً لتمتعها بالحياة الدستورية ــ حلقات مفرغة في السلسلة نفسها . لقد كان نشاط منظماتنا ، الغريب في ظاهره عن الحياة القومية او الوطنية ، من هذه الحياة في الصميم . وكان من ثمرات هذا النشاط ان قلّ عدد المتربصين ، ولا ادلّ على ذلك من كثرة عدد المرشحين : انهم يخرجون الآن من التربص ، ليدخلوا النيابة ..

ومما يحسن ذكره هنا ، والتذكير به على رؤوس الاشهاد ، ان لبنان لن يُحسب متطفلاً على مائدة الامم المتحدة . فأولاً : ان حق الشعوب في الحياة

الحرة المستقلة الرغدة لا ينبغي ان يقاس بضخامة عددها، واتساع رقعتها . وثانياً : ان لبنان قد ساهم في هذه الحرب ، ولا يزال ، مساهمة ذات وزن ، وكل شيء نسبي في الوجود . فالأراضي اللبنانية ومواردها ، منذ نحو عامين ، في تصرف الدول الحليفة ، والوف من اللبنانيين في صفوف الحلفاء يقاتلون ويستشهدون ، ولا سيما في الجيشين الامريكي والفرنسي . ان لبنان المقيم والمهاجر على السواء ، يؤديان قسطهما في الجهاد، عن طيب خاطر ، موفوراً غير مضنون . لهذا أيضاً يجب ان نعتقد بان اعلان الاستقلال اللبناني ، وعودة الحياة الدستورية ، هما في منطق الحوادث ، في سلسلة الحلقات المفرغة ، كبرى وصغرى ، اللازمة جميعاً ، دون تفاضل بينهما .

وبعد ، أليس من علامات الوقت ، الباعثة على التفاؤل ، ان تستهل الفئات الديمقراطية في هذا البلد ، حملتها الانتخابية ، بالاحتفال لعيد العمل والعمال ، عيد نضال الافراد والشعوب ، في سبيل احقاق الحقوق ، وإثبات الحريات ؟

ان هذا العيد هو أيضاً ، كمكافحة النازية والفاشية ، وكصداقة الاتحاد السوفياتي ، وكجبهة الديمقراطيات ، مظهر عالمي ، غير خاص بلبنان . لكنه عيد لبناني أيضاً ، لسبب بسيط جداً ، هو ان في لبنان ، شأن سائر البلدان ، عملا وعمالاً ، وأفراداً وجماعات ، تناضل لأجل الحقوق والحريات . ليس في وسع لبنان ، ولا أي بلد آخر ، أن يخرج من الدنيا ..

« لهذا العيد يحتفل العالم بأسره .. حتى المانيا

النازية . » هذا ما قاله لي أحـدهم أمس ، وغمز بعينه غمزاً ذا مغزى . قلت له : أجل ، ان نصف النازية اشتراكية ، لكن نصف اسمها .. ولما لم يستطع الجيش الالماني ان يغلب الجيش الأحمر ، سلط عليه ابواق الدعاية فابادته ، لكن عدّة مرّات . والمانيا تريد خير الشعوب ، لكنها تقتل وتدمر ، وتسلب وتنهب ، فاذا جاء وقت الحساب شكت وبكت ، ونادت انها تصلب نفسها كل ربع قرن ، لافتداء العالم .. كلا ، يا صاحبي . انه في المانيا ليس عيد العمل والعمّال ، بل عيد السخرة والارقاء . ما أجدرهم هناك بان يتناشدوا قول المتنبي :

عيد ! . بأية حال عدت يا عيد !.

لقد أتى علينا زمن في لبنان ، وبين الطائفة

والاخرى ، أو بين أبناء دين وأبناء الدين الآخر ، كالحدود التي تفصل وطناً عن وطن : كدنا نحتاج إلى جوازات سفر بين الطوائف والأديان .. ونحن على يقين من ان نظاماً سياسياً ديمقراطياً صحيحاً كفيل بأن يمحو تلك الحدود الوهمية المخجلة ، والمؤذية ككثير من الأوهام . ولا خسارة في ذلك على أحد ، اللهم إلا على نفر قليل من المستثمرين الكسالى . وأظن ان هؤلاء ليس يهمنا شأنهم .

نحن بحاجة إلى ما يؤلف ويجمع ، لا إلى ما يفرّق ويقطع : ان الوطنية تؤلف وتجمع . ان النظام السياسي الديمقراطي الصحيح يؤلف ويجمع . ان التقدم الاجتماعي يؤلف ويجمع .

وكذلك عيد أوّل نوار ، فهو يؤلف ويجمع :

عيد العمل والعُمَّال ، عيد النضال فى سبيل حقوقِ الأفراد وحريات الامم ، على إطلاقها .

طُوبى لمن يأتي إلى « النيابة » محمولاً على « اليد العاملة » القوية النظيفة .

الخلق — إلا ما ندر — على دين الواقع أو الحالة الراهنة . والقاعدة المشهورة ، المتردية برداء العلم : « الناس على دين ملوكهم » لا تعني في النتيجة غير هذا . فالواقع هنا هو السلطان — أي السلطة القائمة أصولاً وفروعاً ، أركاناً وشيعاً ، شخوصاً وظلالاً .

وليس في طبيعة الوجود ان يعمل السلطان على تبديل الواقع ، أو يطالب به ، أو يدعو إليه . في كل تبديل عنصر ثوري ، ولا يصح ان تثور السلطة القائمة على نفسها ، أو الواقع على ذاته :

السلطان ـــ أساساً وتعريفاً ـــ قوّة ، بل مجموعة قوى تحافظ على الحقوق والمراكز « المكتسبة » . فإذا جاء السلطان يعبث بها ، حقّت عليه تهمة الخيانة ـــ خيانة مهمته ووظيفته ومنطق الأشياء .

سوى ان السلطان قد يثور على الواقع أو الحالة الراهنة أحياناً ، فيتناولها بالتبديل والتحوير ، لكن ليعود بها القهقرى ، تمكيناً وتوكيداً لتلك الحقوق والمراكز المهددة ـــ كلما آنس اقتراب العاصفة ، وامكنته الفرصة . حينئذٍ يذرّ قرن الرجعيـــة من ثقوب ثوب المحافظة ، أو من اثمالها . وآخر مظاهر هذه النزعة الوبيلة ، الحركة النازية التي اوشكت ان تطغى على العـــالم ، معرّضة الترقي الانساني لأدهى دهياء عرفها التاريخ ، ليس بمـــا أعدّت من قوى ضخمة ، وسنّت من سنن خطرة وحيسب ، بل بمـــا

شجّعت النزعة الرجعية أيضاً في سائر اقطار الدنيا ، وأغرت بتقليدها ذوي الحقوق المكتسبة جميعاً — المكتسبة المهدّدة .

إن تكن القاعدة المشهورة : « الناس على دين ملوكهم » متردّية برداء العلم ، فالحكمة المأثورة : « ليس في الامكان ، أبدع مما كان » تتحلّى بحلية التصوف .. وانها ، في لطف وقعها على الآذان ، وعلى الاذهان ، لأشبه بالترانيم التي يُراد بها التنويم . ففي الامكان ، دوماً على مدار الزمان ، غير — إذا لم نقل : أبدع — مما هو كائن . وليست سنّة الوجود المحافظة ولا البقاء ولا الجمود ، بل التطور والتحول والصيرورة . وهل كان التاريخ الانساني إلا حكاية النزاع المستمرّ المستحرّ ، بين قوى الرجعية

ونزعة التقدم ، في فكر الانسان وفي أوضاعه ؟ وهي قصة — لحسن الحظ — كالقصص التي تحترم ذاتها ، يفوز فيها أخيراً ، في كل مرحلة ، الحق على الباطل ، او الخير على الشر — نعني : الترقي على الرجعية . بيد ان هذا الغلو في التفاؤل بما هو كائن ، وفي التطير أو اليأس مما يمكن أو يجب أن « يصير » ليس من اختصاص الشرق وحده . فقد نال فولتير من « ليس في الامكان أبدع مما كان » هذه ، في فجر الثورة الفرنسية — إحدى مراحل التاريخ الكبرى — بأمتع سخر وألذعه .

يقولون لنا أيضاً : « هي القوة ، لا قِبَلَ لنا بها . » كمن يشكو ضيق صدره : « هو الجبل ، لا مزحزح له . » بل كمن يتأهب ليغط في نومه :

« هو القضاء فمن يدفعه ؟ » وكأني بهم يخشون ان لا نفهم ، على أحسن وجه واكمله ، ضرورة الرضى والقناعة والخنوع والتسليم ، فهم يأتوننا ببرهان لا يقطع قطعاً ، لكن يحز وخزاً .. يقولون لنا : « ان العين لن تقاوم المخرز . » اما التاريخ فقد عرف حواراً يدور بين تلك العين وذلك المخرز .. ودائماً كان ينبت للعين ظفر وناب .

٥ كل شيء يتغير

إذا جاءكم من يقول لكم بلهجة الناصح المشفق الأمين ، وسيماء العاقل المجرّب الحكيم : « لا شيء يتغيّر » فلا تصدِّقوه . هذا الرجل هو أولى الناس بان لا يُصدّق ، بان لا يوثق بكلامه ، لانه ابعد الناس عن الحكمة والتجربة ، والّا فعن الصدق والامانة : يريد ان يؤيسكم من انفسكم .. قولوا له : « كلا ، بل كل شيء يتغير . »

والواقع ان كل شيء يتغير .. حتى الجهال وسيئو النية من بني قومنا ، اولئك الذين كانوا ، لثلاث أو اربع سنوات خلت — غفر الله لهم ! — يرجون في النازية خيراً ، او يحسبون ان فوزها كقضاء الله

لا دافع له ، ولا عاصم منه .. حتى اولئك الجهال وسيئو النية تغيروا اخيراً ، وتغيروا كثيراً . لكن من الانصاف ان نعلن على رؤس الأشهاد ، ان الجهال كانوا اسرع من سيئي النية ، اسبق الى الهداية . ان سيئي النية يمشون الى الحق مترددين متقاعسين محرنجمين ، كالذين عناهم المتصوف ابن عطاء الله السكندري بقوله : « عجبت لقوم يقادون الى الجنة بالسلاسل ! »

ولسنا ندعي لعصبة مكافحة النازية والفاشية من فضل في هذا التغير او التطور او التحول ، بقدر ما نعزوه الى الاحداث الصغار والجسام ، على السواء . فلا جرم ان الانكسارات التي منيت بها جيوش المحور في ميادين القتال ، كانت حججاً أقوى من حججنا ، وبراهين ادمغ من براهيننا . ان معركة

ستالينغراد الساحقة لأبلغ من كل الخطب ، وهزيمة افريقية الصاعقة لأوعظ من كل المواعظ . بقي ان لا يخالط النفوس شيء من مرارة الخيبة او حرقة الاسف ، بعد تلك النتيجة — المرجوّة عندنا ، غير المتوقعة عندهم .. وليقضِ الطغيان النازي ، وأي طغيان يسمى باسم آخر ، غير مأسوف عليه !

كل شيء يتغير ! حتى النازية التي كان لها لبدة الاسد ، تغيرت . ها قد نبت لها في الصقيع الروسي صوفُ حملٍ للدفء ، وفي القيظ الافريقي ساقا نعامة للهرب .. اما « الجنس » الايطالي ، فقد لبس باديءَ بدء ، جلد الحمار لعدم الفهم .. عفواً ! أنا لا أتعمد اهانة احد ، لكن من باب تقرير الواقع ..

لقد كان لعصبتنا في كل بلد ، احتفال للنصر الافريقي . ولعل بعضهم يتساءلون : « اما لهذه

الاحتفالات حد ؟ » كما يتساءل المغني : « اما لهذا الليل آخر ؟ » ولا يفتأ يتساءل حتى يجيبه الصبح .. واكبر الظن اننا سنظل نحتفل حتى يُرزق الحلفاء نصراً جديداً ، او تُفتح الجبهة الثانية مثلاً .. ماذا تريدون ؟ نحن من المولعين بالاجتماعات على انواعها ، من سياسية وادبية وثقافية ، المؤمنين بحسن عائدتها وجدواها ، لا يهمنا السبب الذي من اجله نجتمع ، متى يكن فرصة للاتصال باخواننا ، والتحدث اليهم في مختلف الشؤون ، والحديث شجون .

ومن تحصيل الحاصل القول بأن اغتباطنا هذه المرة اعظم منه في كل مرة . فاجتماع يعقد في طرابلس له دلالة ابلغ اثراً ، ومعنى ابعد مدى ، من اي اجتماع آخر . ان الفيحاء كانت ولن تزال ، في طليعة المدن اللبنانية ، بلهَ العربية ، وعياً فكرياً

ويقظة سياسية . سوى ان اهل الفيحاء يريدون اقناعنا باننا جئنا لنعطيهم ، على حين جئنا لنأخذ عنهم ونقتبس منهم . فاعجبْ لمن يعطيك ، ويوهمك انك تعطيه : تلك غاية الغايات في الاريحية والسخاء .

وبعد ، فليس الذنب ذنبنا ، ولا الخطيئة خطيئتنا ، اذا تعددت في اسم عصبتنا ، الالفاظ الاعجمية ، من نازية وفاشية . فنحن — يشهد الله — لم نخترع هذه الالفاظ ولا مدلولاتها ، كما اننا في الوقت نفسه ، لا نحب الرطانة . نرجو ان نستبدل عما قليل ، متى تسلم النازية نفسها الاخير ، بهذا الاسم المتعاجم اسماً لطيفاً يكون مبرأً من العجمة .. لكن لا بد ، على ما يظهر من « المكافحة » في كل حال ، كأنما كُتب علينا ان نكافح دائماً ، شيئاً من الاشياء ، بل داء من الادواء .

كل شيء يتغير ، حتى اسم عصبتنا .. شيء واحد لا يتغير ، هو عقل الذي يريد ان يؤيسنا من انفسنا ، ومن مستقبل امتنا ، فيقول بلهجة الناصح المشفق الامين ، وسيماء العاقل المجرب الحكيم : « لا شيء يتغير .. » نحمد الله على ان الكون غير مربوط بعقله .

وليس التاريخ الا حكاية التغير الطاريء على علاقة الانسان بالطبيعة ، كيف يكتنهها ويسخرها ويستثمرها لمرافقه ومنافعه العاجلة والآجلة ، والتغير الطاريء على علاقة البشر بعضهم ببعض ، أفراداً بافراد ، وجماعات بجماعات ، كيف يوزعون بينهم التكاليف والجهود والخيرات . هو تغير دائم مستمر لا ينتهي (ولا تنتهي حكايته) يسير نحو الاعدل فالاعدل ، والاكمل فالاكمل .. ونحن على

مثل اليقين من ان العالم الذي نعيش فيه يجتاز بهذه الأزمة ، خطوة من خطاه التاريخيـــة العظمى ، موجهاً وجهه شطر الإنسانية الفاضلة المثلى . لذلك وقفنا من الأزمة ، موقفنا الصريح ، منذ البداية . وإذا كنا قد حاربنا النازية ، وهي أدهى آفة رجعية تمرست البشرية بها ، فليس عجيباً أن نشمر اليوم لمحاربة الرجعيـــة في بلادنا ، بل العجيب ان لا نحاربها .. ان لنا حقاً في الحياة الحرّة الرغدة الآمنة — المتقدمة — التي تهواها ضمائر الشعوب في العالم قاطبة ، ولا تفتأ تناضل من أجلها . مَنْ يَعِشْ يرَ ان أشياء كثيرة تتغير ، حتى في هذا الوطن الذي يريده بعضهم متحفاً للعاديات أو « الخشب المسندة » ويأبى إلا أن يكون وطناً للجماهير التي تكدح وتفرح ، وتألم وتحلم ..



١

يظهر ايها الإخوان الأفاضل ، ان موقفي في هذه الحملة الانتخابية على إطلاقها ، من أصعب المواقف . والصعوبة — في نظر بعضهم لا في نظري — ناشئة عن أسباب شتى ، قد يكون اهمها هو انني — وليس ذلك بسر من الأسرار — لا مال عندي .. لا مال عندي اشتري به اصوات الناخبين الذين — على ما يقال — يبيعون أصواتهم .. ولست أدري الآن أي الأمرين أدعى للعجب : أن يوجد أناس يبيعون أصواتهم ، أو أن يوجد أناس يشترونها . لكن المؤكد ان لا بيع ولا شراء إلا حيث يوجد البائع والمشتري : يجب إذاً ان نصدق

الحكاية . فأما والحكاية هكذا فمن المؤكد أيضاً ان البضاعة ستتبع ، هذه المرة ، السوق من حيث الغلاء الفاحش ، والعياذ بالله !

وتالله ، لست أحسد الغني على أموال ينفقهـا في سبيل لهوه أو حاجتـه ، فكيف أحسده على شراء اصوات ؟ ليصدق من شاء ، وليكذب من شاء : يبقى اني أعلم الناس بنفسي... أنا أفهم من البيع والشراء ما علمنيه المرحوم والدي ، عبد الرحمن ابو عمر ، لما مارست التجارة في دكانه بضعة أشهر ، بصورة متقطعة . تعلمت ثمة ان التاجر يشتري بضاعة كي يبيعها فيما بعد ، بربح قليل أو كثير .. وكان يسميها التجارة المباركة .. أمّا أن تُشترى الأصوات وتباع ، فهذا ما يتجاوز دائرة فهمي . لو كانت ،

على الأقل ، أصوات المغنين والمغنيات ، الحلوة الرقيقة المطربة ، إذاً كنت أتصور انها تُشرى كي تعبأ في الصندوق .. لا صندوق الاقتراع ، بل الفنغراف !

صحيح ان المرحوم أبي كان يبيع بعض الأصناف برسالها .. وكان يسميها الأصناف « الفقيرة » ، كشحط الكبريت مثلاً . لكنه ، ولله الحمد ، كان يربح « الفراغة » .. ألا فقولوا لي الآن : في هذه الصفقة ، بين الناخب والنائب — أو ، وهو الأصح ، بين المصوِّت والمصوَّت له — عند صندوق الاقتراع ، هل يربح النائب الكريم « الفراغة » ؟

وليس عجيباً ، بعد ان تتم الصفقة ، ان نرى الفريقين وقد ادار كل منهما ظهره للآخر ، وسار في

ناحيته ، ليعمل على شاكلته ، هذا الى ندوة البرلمان وذاك الى مشاغله اليومية ، لا يفكر احدهما بصاحبه إلا إذا اطال الله عمرهما الى الموسم المقبل ، فيلتقيان كرة اخرى ، ويجددان الصفقة ، والله هو الرزاق !

ويظهر ان النائب خلال هذه الفترة — القصيرة او الطويلة بقدر ما يعيش المجلس — يكون ارحب صدراً من ان يسأل الناخب عما صنع بالوريقات التي نقده إياها . فيقابله الناخب بمثل معروفه ، فلا يسأله عما فعل بالاصوات التي باعها منه : لقد أصاب كل واحد حقه ، واخذ نصيبه .

... قرأت قصة عنوانها « الرجل الذي باع ظله » . انكم لتتساءلون ولا ريب : « كيف يبيع رجل ظله ؟ ومن هو هذا التاجر الموفق السعيد الذي

يشتري ظلال البَشر ؟ » لكن لو علمتم ان الذي اشترى من بطل القصة المسكين ظله ، هو الشيطان لمآرب في نفسه ، لبطل عجبكم . ان ابليس وحده يعرف كيف يتاجر بالظلال .. وبالاصوات .

قال لي بعض الاصدقاء او اشباه الاصدقاء : « ليس عندك مال ؟ إذاً فكيف وكيف وكيف تريد ان تكون نائباً ؟ » سألني : « كيف ؟ » ثلاث مرات متواليات . يريد ان يؤيسني ، او لعله يودّ لو يحرسني . اجبته : « اريد ان اكون نائباً رغم ورغم ورغم ان لا مال عندي . » اردت ان اقطع طريق الجدل . قال لي : « ليس هذا بجواب . » قلت له : « ليس سؤالك بسؤال . » ولما نظر إلي مستغرباً ، مستطلعاً ، اجبته وانا اغمز بعيني : « ذاك سر المصلحة . »

والآن سأفشي اليكم ، ايها الاخوان ، سر المصلحة . هو غاية في البَساطة ، حتى انه ليشبه الاحاجي او الالغاز الصينْيانية : ان اقلية الناخبين هي التي تبيع اصواتها ، فتختلس هكذا « الاكثرية » اختلاساً . هم الفقراء مادة ومعنى ، ومادة في الاغلب . اما اكثرية الناخبين ، وهم الاطايب والاخيار والافاضل والواعون ، الى آخر الصفات الحميدة ، فلا يتدخلون في الانتخاب . انهم يعتزلون ، بل يهربون من المعركة . انهم يحفظون اصواتهم ، كأنه ضرب من الاحتكار .. واني لاتساءل ، وحقي ان اتساءل ، الآن أمامكم : أي الفريقين اعظم اساءة الى امته والى بلاده ، او الى « النظافة » بنوع عام ؟ كلا ، انا لا اتساءل ، بل اطرح عليكم ، انتم ايها السادة ، السؤال ..

اخواني !. قاتل الله الانتخابات . ان الانتخابات تضطر المرشح الى التحدث عن نفسه . لكن اطمئنوا فلن احدثكم عن شيء من هذا القبيل . لو كان في نيتي ان انغص عليكم هذا الاجتماع اللطيف ، لالقيت خطبة انتخابية ، اقول لكم خلالها : « انا ! » مئة مرة ومرة .

شهدت ذات يوم حفلة من ذلك الطراز الضخم ، وقد وقف احد ممتهني السياسة الذين يشترون الاصوات او يأخذونها بالحيلة ، يتكلم . سمعته يذكر جبينه ، ولا ادري لاية مناسبة . اخذ يسميه « الجبين الناصع » ثم يضرب بكفه على جبهته . وكانت بيضاء حقاً ، لسبب بسيط هو ان صاحبنا ليس بأسمر اللون ، لا لسبب آخر . وكنت وانا اصغي اليه ، انتظر ان يخطيء فيضرب بيده على

قفاه .. ثم انتقــل الى الحديث عن قلبه ، قلبه الكبير الذي يسع كل شيء : الوطن والامــة ، وامجاد الماضي وآمال المستقبل . فاذا به يلطم بغتــة صدره ، وفي الجانب الايسر .. العجيب انه لم يخطيء جهة قلبه !

والواقع ان الجبين لا يثبت شيئاً ، والقلب لا يحتوي غير المادة المعروفة . لكن لا بدَّ في خطب الدعاية الانتخابية وغيرها ، على ما يظهر ، من لطم الجبين الناصع ، والاشارة إلى القلب الكبير . ولعلَّ لذلك الخطيب عذراً . فحبذا لو كان الصدق والأمانة والإخلاص والنزاهة — حبذا لو كانت هذه المزايا تبدو للعيــان ، كأرنبة الأنف مثلاً . إذاً لكان الناخبون الذين لا يعرفون منطق الكيس ، يميزون بين المرشحين ، فيصدّقون هــذا ويكذّبون ذاك ،

لأن لكل منهما علامة فارقة .

... أيها الإخوان ! ليس عندي مال . كذلك ليس لي أنف انتخابي بارز يثبت لكم صدقي وأمانتي ، وإخلاصي ونزاهتي . فانا مضطر ، كي أنفذ الى قلوبكم وضمائركم ، أن أتوسل بالوسائل البسيطة المعروفة . هذا برنامجي في أيديكم . هو برنامج صريح متواضع .

قد تقولون لي : « ان البرامج تتشابه . » اجل ، لكن الأشخاص يختلفون . انهم لا يختلفون باشكال أنفهم طبعاً ، بل بما يبعثونه في النفوس من ثقة . وهنا يبدأ عملكم أنتم ..

نحن ، إن نكن أقوياء واثقين من الفوز ، فمنكم نستمد قوتنا وثقتنا . انكم قادرون على ان تبرهنوا للقاصي والداني ، ان الضمائر النزيهة والقلوب

الواعية ، ليست في هذا البلد ، من القلّة بحيث يتصوّر الكثيرون .. ان لكم الكلمة الأولى والأخيرة . (تصفيق) .

٢

بعد بضعة أيام ، وليس يوم الأحد ببعيد ، تنفجر في سماء هذه العاصمة ، قنبلة ولا كالقنابل .. لن تكون ، على كل حال ، من نوع هذا الرصاص الذي يطلقه — وليس يفهم عاقل لماذا ؟ — مصطنعو الحماسة هناك وهنالك ، في المعسكرين الانتخابيين ، فيصم الآذان ، ويخدش الأذهان .. ذلك الرصاص

الأحمق الذي أيسر ما يُقال ، وسط هذا الصحو الذي يُظلِنا ، وهذه المدنية التي تكتنفنا ، وهذه السِلم التي تنتظرنا ، إنه موضوع في غير موضعه ، بل لا موضع له البتَّة .. ليته كان في ميادين القِتال ، في جبهة الامم المتحدة ! . ذلك الرصاص الذي جاء متأخراً ، كأنه لم يعلم ان حرب الحرية والإنسانية على الطغيان والبربرية ، اوشكت أن تنتهي ، فليست بحاجة إلى هذا الضرب العجيب من الرصاص الذي لا يقتل ، لكنه يُزعج .

ستنفجر ، ايها الاخوان ، القنبلة المرجوة عندكم ، المخوفة عندهم . سيسجل التاريخ ان الشعب اللبناني ، هذه المرة ، لم يدع مجالاً لمشعبذة السياسة ، ومرتزقة الانتخابات ، يتآمرون على روحه فيحجبوها ، وعلى إرادته فيخنقوها ، وعلى أقداره

فيبيعوها ويشتروهـا . سيسجل التاريخ ان الشعب اللبنـاني هذه المرة ، قد اعطى اولئك المشعبذين والمرتزقة دزساً لا ينسونه ابد الدهر ، وارسل الى مجلس الامة نواباً عن الامة يقدرون كرامة الانسان ، وحرية الاوطان .

ائذنوا لي ايها الاخوان ، ائذنوا لبيروتي عريق في بيروتيته ، ان يؤكد لكم ، ان الشعب هذه المرة ، الشعب البيروتي الاصيل ، المثقف والعامل ، سيخرج من عزلته المجرمة ، وينزل في المعمعة ، مناضـلا معبراً عن إرادته الصـادقة أن يكون له نواب جديرون به وبمستقبله ، لهم برنامج حيـاة قبل ان اصبح لهم برنامج انتخابي ، بل قبل ان خطرت لهم الانتخابات ببـال .. صحيح ان بيروت بلد الصفقات التجارية ، لكن الانتخاب هذه المرة ، لن

يكون سوى صفقة شعبية وطنية « نظيفة . » ان بيروت التي ترسل اشعة الثقافة والوعي السياسي ، في الاقطار العربية كافة ، فتضيء ما حولها ، لن تبقى في الظلمة بعد اليوم . ان على بيروت واجباً ، هو ان لا تنسى طرفة عين ، انها عاصمة شعب حر في وطن مستقل .

ونحن أيها الإخوان ، نحن في هذه المعركة الانتخابية ، لا نريد ان نكون ، يشهد الله ، سوى الدرس الذي يلقيه الشعب اللبناني على أولئك المرتزقة ومشعبذة السياسة . لا نريد ان نكون سوى الوسيلة التي يتوسل بها الشعب اللبناني إلى إثبات ذاته وإرادته وكرامته . لا نريد ان نكون سوى البرهان الذي يقيمه الشعب اللبناني على جدارته بالحياة الحرّة المستقلّة التي طالما تاقت نفوس

أبنائه اليها ، وجاهد احراره من أجلها .. بنا ستمحو بيروت إثم الانتخابات الزائفة ، وتغسل عارها .

أيها الإخوان ! . بإزاء هـذه القوى الضخمة المتنوعة التي تتألب علينا من كل ناحية ، وتُناوِئنا سراً وعلانية ، ولا سِلاح لنا إلّا تأييدكم ، ولا رسمال إلّا ثقتكم ، سنصمد ونربح المعركة . نحن الذين ربحنا حرب الديمقراطية في العالم ، كيف لا نربح معركة انتخابية في لبنان ؟! (تصفيق وهتاف).

٣

ويجب ان اسلِّم الآن ، بأننا خسرنا المعركة الانتخابية في لبنان ، مع أننـا انتصرنا في حرب الديمقراطية في العالم . لكن قيل لي ان إخفاقي في

الانتخـاب النيـابي كان كالنجاح . فـآه من « كاف » التشبيـه هذه ! انها تهمّ بان تنتقل من كتابتي ، إلى سيرتي ..

انتهى طبع هذا الكتاب على

مطابع الكشاف

في ٦ تشرين الثاني ١٩٤٤ .

